صخب الهمس..

رواية

اسم الكتاب : صخب الهمس

المـــــؤلف : حسن البنداري

صدرت الطبعة لهذه الرواية فى إبريل ٢٠٠٩

الناشـــــر : مكتبة بورصة الكتب للنشر والتوزيع

: دار السياب للطباعة والنشر والتوزيع (لندن)

بورصة الكتب

مكتبة

بورصة الكتب للنشر والتوزيع

٢٥ شارع شريف- القاهرة

٠١٠١٨٨٩٣٦٣ -٠١٥٢١٧٣٢٧٧٧ -٠٢/٢٣٩٢٠٣٦٩

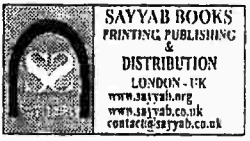

بريطانيا - لندن

رقم الإيداع : ٢٠١١/٧٣٧٦

الترقيم الدولي:

978-977-5016-10-2

حقوق الطبع محفوظة

حسن البنداري

صَخب الهَمْس..

(رواية)

الطبعة الثانية

٢٠١١

الناشر

مكتبة بورصة الكتب

٢٥ شارع شريف - القاهرة

البنداري، حسن.
صخب الهمس: رواية/ حسن البنداري. -ط١-
القاهرة: بورصة الكتب للنشر والتوزيع،٢٠١١ .
٢١٥ص؛ ٢٠سم.
تدمك: ٢-١٠-٥٠١٦-٩٧٧-٩٧٨
١- القصص العربية.
أ- العنوان.

٨١٣

رقم الايداع
٢٠١١/٧٣٧٦
الترقيم الدولي:
978-977-5016-10-2

(١)

أدرت عيني بين رفوف المكتبة، وسطح المكتب، والمقعدين المتقابلين أمامه، و"براويز" الشهادات والصور المعلقة على الجدران الثلاثة المواجهة.. دققت في شهادة تفوقي الدراسي في الثانوية العامة، تجاورها صورتي وأنا أتسلمها من الرئيس أنور السادات في عيد العلم ١٩٧٩، وفي شهادة بكالوريوس الطب جامعة الإسكندرية ١٩٨٥، ودكتوراه الجراحة من جامعة هارفارد الأمريكية ١٩٩٠، وصورتي وأنا أتسلم وسام العلوم من الرئيس حسني مبارك.. ثم توقفت عند "برواز" ضم قصيدة مدح، تعلوها كلمات: إلى "نابغة الطب الأستاذ الدكتور رشيد الكاشف".. وهي لضابط شرطة شاب شفى من جراحة دقيقة أجريتها له الشهر الماضي بالمستشفى العسكري نتيجة إصابته برصاص جندي إسرائيلي على حدود سيناء، اعتبرها المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي ناشئة عن خطأ فردي، وأن الجندي رهن التحقيق..

أحسست بالرضا بعد تجول عيني بين "براويز" الشهادات والصور وقصيدة المدح.. لكن لم يستغرق إحساسي سوى دقائق قليلة؛ ذكرتْني ساعة الحائط المقابلة بحلول موعد نشرات الأخبار. فتحت التلفزيون على "أخبار الساعة الحادية عشرة" وأنا أشعر بإحساس الرضا يتوارى بمشاهد القتل والدمار التي يبثها مراسلو الفضائيات العربية والعالمية..

نسيت تماماً إحساس الرضا الذي انتابني منذ قليل بمشاهد الحرب الدائرة منذ أسبوعين.. تضرب قنابل الطائرات والدبابات المدينة الساحلية الصغيرة.. "غزة" المتاخمة لحدود وطني، فتذكرت الضابط الشاب الذي أصيب برصاص جندي إسرائيلي جرى التحقيق معه كما زعموا ولم يسفر عن شيء إلا بزيارة موظف بالسفارة للضابط المصاب بالمستشفى حاملاً معه باقة ورد أبيض...!

هاهو الجيش المدجج بمختلف الأسلحة يفشل في السيطرة عليها، ويعجز عن منع إطلاق الصواريخ المتواضعة المحلية

الصنع. تدل المشاهد الدامية على صمود قاطني المدينة، واستبسالهم في الدفاع عنها برغم الضربات الجوية.. يقاومون بإمكانات متواضعة لا تجاري الأعتدة الجبارة..

يشاهد معي في الوقت نفسه عيون قاطني الدول الأخرى، العربية والعالمية. يتابعون الدمار والقتلى والجرحى على الشاشات وهم في المنازل والمقاهي والأندية.. يتابعون في صمت، وكانما يشاهدون فيلماً سينمائياً مشوقاً..!..

انتبهت على اتصال بتليفوني المحمول.. من شقيقي صفوان الكاشف المقيم بالجيزة أمام النيل.. صحفي ناجح.. مقالاته مثيرة.. بالصحف المصرية والعربية والعالمية.. خريج "اقتصاد وعلوم سياسية"، أصدر خمسة عشر كتاباً خمسة منها باللغتين الإنجليزية والفرنسية.. وهو مراسل "متجول في أنحاء المعمورة لصحيفة "الشهاب" الواسعة الانتشار".. قال بصوت قلق:

- أنا متوجّس.. أشعر أني مطارد.

- ممن؟!

- من قوى مجهولة معلومة.

أنهى المكالمة بقول حاسم:

- سأكلمك في وقت آخر.. جرس الباب يرن.

أغلقت التليفزيون ونهضت من مكاني ومضيت إلى الشرفة المطلة على كورنيش جليم.. ما إن استقررت في أحد مقاعد الشرفة حتى فكرت في توجّس صفوان وقلقه.. فكرت في أنه مناوئ شرس لأهداف الدولة العبرية المعلنة والخفية، ولهيمنة "القطب الأوحد" على دول العالمين الشرقي والغربي، وأن جريدة "الشهاب" أتاحت له موافاتها بتقارير صحفية، ومقالات له ولسواه من مناوئي الدول الأخرى لسياسة القطب الأوحد.. وهو في كلامه عن الدولة العبرية صريح للغاية، ودائم الكشف عن سياسة القمع والسلب والاستيطان.. ولأنه اكتوى بنار حرب الاستنزاف وحرب ٧٣؛ فإنه لا يترك مناسبة إلا ونبّه إلى خطورة سياسة الدولة العبرية.. ولم يلق بالاً إلى رسائل التهديد والترهيب والترغيب، فهو مقاتل شرس؛ حصل على نجمة سيناء من الرئيس أنور

السادات لاقتحامه موقعاً حصيناً وراء خط بارليف وإصابة دبابة قيادة بداخلها عقيد محترف سارع إلى أسره وسلمه لقائد المجموعة المقتحمة، ولأنه وهو مجند كان يراسل جريدة الشهاب، فقد سهل تعيينه عقب انتهاء فترة تجنيده وتسريحه عام ١٩٧٤.. لا أنسى قوله عقب صدور قرار تعيينه بالجريدة:

- معركتي مستمرة لم تنته بعد.

وبعد مرور خمس سنوات أي في سنة ١٩٧٩، قال وهو يعلق على اتفاقية كامب ديفيد وصور الزعماء الثلاثة: السادات وبيجين وكارتر:

- أرأيت؟ لا تظن أن المشكلة الأساسية قد انتهت، ليس هناك إلزام بقيام الدولة الفلسطينية بجوار الدولة العبرية.. لن تسمح إسرائيل ولا الغرب بقيام الدولة.

- الاتفاقية تفتح الباب للمفاوضات.

- مفاوضات نعم.. دولة لا.. وسوف نرى.

توقف صفوان برهة وقال:

- لا تشغل بالك يا رشيد. أنت الآن في السنة الأولى بالكلية.. أحب أن أراك أستاذاً بها، وطبيباً مرموقاً.

لا أنسى ملامح وجهه العاكسة لسعادته وأنا أتلقى التهاني بعودتي إلى الوطن حاملاً دكتوراه الجراحة من هارفارد عام ١٩٩٠، وتواصلت سعادته في جلسة النادي البحري التي ضمت العميد بحري أحمد كامل، وصديقنا المشترك الدكتور نبيل جريس أستاذ العلوم السياسية بجامعة القاهرة، الذي يعتز بصداقته لأنه طنطاوي مثله، ورفيق سلاح في حربي الاستنزاف و ٧٣، كما حضر الجلسة المهندس أشرف الساعي الإسكندراني الذي خاض معهما معركة هاجموا فيها موقعاً دأب على إطلاق النار والقذائف على المواقع المدافعة عن الشاطئ الغربي للقناة، وشاركت في الجلسة صحفية شابة: شمس الجوهرى، وهى تتبنى أفكار صفوان وتسير على خطاه وهو بمثابة الأستاذ المعلم. نصحني صفوان يومها قائلاً:

- أتقن تخصصك. فالوطن بحاجة إلى الإتقان..

وعلقت بقولي:

- أنت تهتم بي، وبكل أفراد أسرتنا وبالجميع. ولا تفكر في نفسك.

وقال العميد أحمد كامل:

- أوافق على كلام الدكتور رشيد. فأنت بحاجة إلى الاستقرار.

وعقبت:

- أبوانا حزينان لأنك لا تفكر في نفسك. يتمنيان أن تسعدنا بزوجة وأبناء.

- انس يا رشيد موضوع الزواج.. وهبت نفسي للدفاع عن القضية.

- سأذكرك دائماً برغبة أبوينا.

- سأذكر نفسي دائماً بالدفاع عن القضية.

وقال الدكتور نبيل:

- هو عازف عن الزواج، لأنه لم يجد الإنسانة المناسبة.

وعقّب المهندس أشرف بصوت رخيم:

- أمثال صفوان لا يفيدهم استقرار بمنزل وزوجة وأبناء.. ماذا تنتظر من مثقف مهموم بوطنه وبالعالم – إلا الزهد في الزواج والأبناء؟

التفتُّ إلى همس الجوهرى علّني أجد عندها المساعدة، لكن اكتشفت أنها تديم النظر إليّ.. خفق قلبي وانزعجت، فقد ظننت في لحظة أنها يمكن أن تكون مرشحة له. لم يدم خفق قلبي وانزعاجي سوى لحظات، فقد بادرت إلى القول بأنها مؤمنة برأي أستاذي صفوان. ثم أضافت:

- عجزت عن معارضة أبي وأخي بشأن زواجي من ابن خالتي رجل الأعمال "شوقي الجبّاسي". فرض عليّ فرضاً وأنا التي نذرت نفسي للدفاع عن القضية.

حلّ بقلبي شعور بالأسف، وأنا أقرأ في عينيها شعوراً مماثلاً لما أشعر به.. "الأسف". انعطفت في هذه اللحظة نحوها، ورغبت أن يتواصل انعطافي ويستمر.. وأضافت همس.

- كبلني بولدين. ثم انصرف إلى أعماله التي لا أعرف عنها شيئاً. ولم يمانع في تواصل عملي بالصحافة والسفر، والسهر في الجريدة.. فاستقرت نفسي وصمتّ.. ما دمت أواصل مع أستاذي صفوان الدفاع عن القضية..

وعقب العميد أحمد كامل:

- أنا أقدر إصراركما على هدف محدد.

وقال أشرف الساعي:

- المهم حماية أهدافنا والذود عنها.

قلت في نفسي: لم أفكر في الزواج طوال سنوات دراستي في الطب، وبعد سنوات من تخرجي، لأنني شعرت دائماً بأن الفتاة الموعودة لم تظهر بعد.. وتحسرت؛ فها هي همس الجوهري

أمامي لكنها زوجة وأم لولدين، ومحال أن تفصح عن رغبتك رغم تعانق العيون.. ومن الأفضل أن تمد يدك لأية فتاة ترغب في الارتباط بك..

وكأن رغبتي في مدّ يدي قد عرفتها فتاة فائقة الجمال.. تعرفت عليها في نادي "سبورتنج" بعد ثلاث سنوات من تعييني معيداً بالكلية. أقنعني حضورها وجمالها، وبمجرد أن صارحتها بإعجابي وصارحتني بإعجابها بي منذ عام – تقدمت وخطبت وتزوجت في شهرين، صرت زوجاً "لهند الجارحي" التي وافق عليها جميع عائلتي عدا صفوان الذي لم تظهر على وجهه علامات الرضا والقبول، وإن كان قد بارك بتحفظ يوم الزفاف وغادر مع الدكتور نبيل جريس الإسكندرية ليلتها إلى الجيزة..

غرقت في سكرة الزواج أياماً طويلة، لكن بعد ثلاثة أشهر اكتشفتُ صدفة أنها تلاحق، وتراقب، وتسترق السمع، لكن لم يكن لدي الوقت لإثبات أي شيء مريب.. وإن لم أمنع إحساساً بغضب

ممزوج بالشك والندم ساورني طوال سنوات أنجبتْ لي خلالها ولديّ أكرم وعزيز..

اجتذبني من شرودي اقتراب هند من باب الشرفة المفتوح.. تأملتها وأنا أنهض من مقعدي. فضلت أن أغلق الباب لبرودة جو ديسمبر. اتجهت إلى المكتب. مشت إلى جواري ساكنة ممتثلة لرغبتي في الجلوس في غرفة المكتب. مديدة القامة رشيقة. جلسنا في الأنتريه على فوتيهين متقابلين. تأملتها بروبها البرتقالي المحبوك. تابعت الوجه الأشقر والعينين الخضراوين، وجبهتها المستديرة، ورأسها الصغير تنسدل من شعرها الذهبي خصلات طويلة على الكتفين. حدجتني بعينين جامدتين وقالت وهي تشير إلى الصور المروعة بالشاشة المواجهة:

- لا أظن أن المدينة ستصمد..

لم أسترح إلى كلماتها المتشائمة. وبادرت بقولي:

- بل ستصمد حتى يأتي الفرج. المهم أن تستمر المقاومة.

- كيف تقاوم جيشاً مزوداً بأحدث الأسلحة. ويستعين بصور الأقمار الصناعية؟!

- والنتيجة؟

- سقوط مؤكد.

- سوف تتحرك الدول العربية ودول العالم الأخرى لوقف الحرب.

- لن يسفر أي اجتماع عن شيء. ورأيي مع المشروع المطروح.

- ما هو؟

- تعود غزة إلى السيادة المصرية، وتنضم الضفة الغربية إلى الأردن مع تغيير في هذين القطاعين.

- والدولة التي نطالب بها؟

- مجرد وهم يستحيل تنفيذه.

رأيت في ردود هند مساندة لسياسة الدولة العبرية، وتبريراً لما تقوم به من قتل وهدم وتشريد وتهجير، فكرت في أنها مديرة مركز "معارف الشرق الأوسط لحقوق الإنسان"، وأنها تقضي به نصف نهار، وتعود إليه في المساء لتبقى فيه حتى العاشرة، يرأس المركز "شوقي الحباسي" الذي بادر إلى تعيينها عقب زيارة لنا مع زوجته همس الجوهري منذ عامين. قال شوقي أثناء الجلسة:

- المركز يحتاج إلى جهود السيدة هند الجارحي. هل أجد موافقة على أن تتولّى منصب "مديرة" المركز؟

فبادرت هند إلى الموافقة قبل أن أتكلم بصوت قويّ واثق دلّ على أن ثمة اتفاقاً بينهما قد جرى قبل الآن.. ربما يكون فاتحها في النادي، أو في مكان آخر.. ورغم أنني تضايقت من سرعة الردّ، فإنني فيما بعد رضيت بعملها الجديد الذي - بالقطع - سيخفف من حالة "الملل" التي لاحظتها على سلوكها منذ شهور، خاصة أن ولدينا أكرم وعزيز قد تجاوزا مرحلة الإعدادية، فأكرم في الصف الثالث الثانوي، وعزيز في الصف الأول، وليسا بحاجة

إلى أي درس خصوصي. وبإمكاني أن أمارس عملي في الجامعة والعيادة باطمئنان ودون ضغط قد ينشأ عن شعورها بالوحدة وإحساسها بالفراغ..

هاهي الآن تجلس أمامي بثقة واطمئنان؛ فقد برزت في ندوات المركز ومؤتمراته المحلية والدولية، وعلا نجمها وانتشر اسمها، وتناولت جهودها الأوساط الثقافية والصحفية في الإسكندرية والقاهرة. ولم يكن مفاجئاً لي أن تتأخر في المركز عن المنزل إلى ساعة متأخرة، ولأنني مقتنع بنشاط المركز المعرفي والإنساني فقد وافقت على سفرها مع أعضائه، وعضواته إلى القاهرة والعريش والغردقة وشرم الشيخ وبعض الدول الأوربية، فلم أبد أي اعتراض على إهمالها لشئون المنزل وولدينا أكرم وعزيز..

لكن منذ أيام أسرّ لي النقيب بمباحث أمن الدولة "مجدي الصياد"، وهو ابن شقيقتي الكبرى بثينة بأن توجيهات عليا صدرت إلينا لوضع المركز تحت المراقبة لأنه يمارس نشاطاً خفياً ضد مصالح الوطن.. توقفت خواطري برهة بقول هند:

- سيزور المركز غداً مانويل زخاري الرئيس الأعلى للمركز وهو روماني أمريكي - وسوف نكون جميعاً في استقباله.

هززت رأسي بالموافقة. وعدت إلى شرودي لأواصل الإستماع إلى صوت ابن شقيقتي الضابط:

- بعض أعضاء المركز لهم صلات بمخابرات معادية، وهم تحت المراقبة.

نظرت إليها ملياً ودعوتها أن تقلل من نشاطها لمصلحة ولدينا أكرم وعزيز، دون أن أشير إلى كلام مجدي لأنني قدرت أنه حريص على استمرار "سرية المراقبة" حتى صدور القرار في الوقت المناسب.. لذلك لا يجب المجابهة ولا التحذير الصريح، فمصلحة الوطن فوق أي اعتبار..

نهضت زوجتي وغادرت الغرفة داعية إياي إلى النوم. استرحت بعد مغادرتها، لأنفرد بنفسي؛ فقد رغبت في الاتصال بشقيقي صفوان لأعرف رأيه فيما يجري من أحداث دامية. ضغطت على رقمه المسجل في المحمول فأتاني صوته واهناً:

- طبعاً.. أنت تسمع وتشاهد.

فقلت بتوتر:

- أنا مذهول مما يجري.

- صدقت كلامي.. كما قلت لك من قبل.. المشكلة لم تنته بعد.

فتساءلت بانفعال:

- والحل؟

فصاح بحنق:

- في التدخّل.

- بالدبلوماسية؟

- غير كافية.

- واتفاقية السلام؟!

- أمننا القومي يفرض علينا التدخّل.

- والاتفاقية؟

- أمن الوطن أكبر من أي اتفاقية. الطائرات والدبابات تعربد على الحدود، وبعض جنودنا المرابطين أصيبوا، وبعضهم صرعتهم الرصاصات وشظايا القنابل المقصودة وغير المقصودة.

- الأمل كبير في وقف الحرب.. الدول تتحرك بسرعة.

- لن تتوقف الحرب إلا بعد الانتهاء من المهمة..

- والمدنيون؟.

- سيقدم ساساتهم اعتذاراً علنياً كالعادة، ولن يصدر قرار إدانة من مجلس الأمن، وسوف يصمت الجميع بمن فيهم العرب. الحرب دائماً تصيب المدنيين والعسكريين. أي ذلة! وأي مهانة..

صمت قليلاً ثم قال بصوت حزين:

- تصبح على خير.. ونتكلم مرة أخرى..

نهضت من مكاني وأغلقت التلفزيون والنور، اتجهت إلى غرفة أكرم وعزيز للاطمئنان، كانا يغطان في نوم عميق. كانت الساعة تقترب من الواحدة وأنا أراها مستلقية - حين دخلت الغرفة

تحت ضوء أباجورتها – وسط الفراش، بدون الروب البرتقالي.. انسدلت خصلات الشعر الذهبي على الوسادة الوردية. بدلت ملابسي.. واتخذت مكاني في السرير، نمت على جانبي الأيمن وأنا شارد ومغمض العينين. أطفأت هند النور.. مدت يديها وعبثت بكتفي ورأسي وصدري. تحولت إليها في الظلام بعقل شارد وقلب مشغول مهموم بما شاهدت، وبما سمعته من ابن شقيقتي الضابط مجدي الصياد..

(٢)

صحوت من نومي في الثانية صباحاً على رنين ثلاثي لتليفوني المحمول سرعان ما توقف، بدا الرنين نذير خطر لأنه يخص شقيقي صفوان.. فتحت أباجورتي التي تتوسط سطح الكومودينو.. سحبت التليفون. رقمه في المربع المضاء..

غادرت الفراش بينما يجتذب عيني قميصها البرتقالي والشعر الذهبي الكثيف المنسدل حول العنق وفوق الظهر البرتقالي. تساءلت: تتظاهر هند بأنها تغط في نوم عميق. ليست نائمة، هي سمعت الرنين الذي بالقطع أيقظها لكنها تتظاهر بالنوم.

تعلم أن المتصل هو شقيقي صفوان. فهذه طريقته الخاصة عند الاتصال بي. يدع الرنين ثلاث مرات ثم يفصل المكالمة ليستأنف الرنين بعد خمس أو عشر دقائق أو أبادر أنا بالاتصال به..

رأيتني أدقق النظر على ضوء الأباجورة بنفس قلقة وعقل نشط ومتأمل؛ منذ شهرين اكتشفت أنها تراقب في صمت وتلاحق.. تتنصت هند على مكالماتي. كلما جاءني اتصال أشعر أنها قريبة جداً من المكان الذي أشغله؛ في غرفة المكتب، أو الصالون أو الأنتريه، حتى ولو كان المتصل أحد مرضاي الذي يضطر إلى الاتصال بطبيبه المعالج..

كم فكرت وتساءلت: ماذا وراء هذا كله؟! لماذا تراقب زوجتي وتتنصت؟! إنها لا تتهم، لكنها تراقب ولا تكف عن الملاحقة. ماذا وراءك يا هند؟ ماذا وراءك؟! كم أحببتك وأخلصت لك ولديّ منك أكرم وعزيز.. درتان تسطعان فوق حياتنا العائلية السعيدة. لم أفكر يوماً في التخلي عنك، لم أفكر في خيانتك، أتحاشى مجرد التفكير في أخرى.. رغم "الإغراءات" التي تقتحم.

حياتي.. أتحاشى بعض نساء وطني، أو بعض نساء المؤتمرات الطبية العالمية التي أدعى إليها.. وأقمع أي تفكير يجسّد لي شخص "همس الجوهري" التي أعلم تماماً أنها متعلقة بي.. ويعلم معي شقيقي صفوان.. ولم تخف همس عاطفتها وهي تتحدث عني – كما عرفت – أمام صديقنا الدكتور نبيل جريس..

يغبط زوجتي ويغبطني كلُّ من يعرفنا عن قرب.. ومن يعرفنا عن بعد، فلماذا أشعر أنني محاصر وأنني مطارد من زوجتي الجميلة التي أنجبت لي أكرم وعزيز؟!..

قبل أن أغلق نور الأباجورة.. نظرت في حسرة إلى ظهرها البرتقالي البديع.. لا أرغب في استمرار نظرتي ولا في تواصل حسرتي. لست أشعر بالاطمئنان منذ أن اكتشفتك وأنت تتنصتين. كيف يمكن أن أكرر إقبالي عليك واستعيد لهفتي التي انسربت منذ تيقني من تكرار المراقبة؟!..

غادرت الغرفة وبيدي "المحمول". مضيت نحو باب الشرفة فتحت ودخلت وأغلقت.. رغم برودة الجو نشدت الاختلاء بنفسي في الشرفة.. احتواني المقعد الذي يتيح لي مشاهدة اتساع بحر جليم وكورنيشه الرخامي البديع، ولأتأمل حركة الناس وعبور السيارات الغادية والرائحة وأنا أسمع تلاطم الأمواج واصطدامها بصخور الشاطئ المظلم الكئيب. الحافل بالمشاهد والحركة والأصوات..

رأيتني أتنكر دهشتي الأولى حين زرت الإسكندرية في رحلة المدرسة الإعدادية.. كم أحببتك وأحب هواءك الساحلي يا مدينتي، وها أنا ذا أقطنك، وأتزوج من إحدى فتياتك، والآن صرت أستاذ الجراحة بكلية الطب وطبيباً مشهوراً، يتوافد المرضى على عيادتي بجليم من أغلب أحياء المدينة. أطول مدة ابتعدت فيها عن مدينتي هي مدة البعثة إلى أمريكا. أربع سنوات قضيتها في مدينة "كمبردج" لأعود بدرجة الدكتوراه في الجراحة من جامعة هارفارد..

كم أحب مرضاي بالمستشفى الجامعي، وأحب مرضاي من أبناء الحي وسواهم الذين تستقبلهم عيادة "جليم".. لي مع أغلبهم صداقات عميقة، وكل من شفي على يدي يواصل اتصاله بي، ولاسيما في الأعياد الدينية والوطنية، يتصلون فأجيب دون ضجر أو ملل أو هروب..

انتبهت على رنين المحمول.. أسرعت إلى فتح التليفون فأتى صوت صفوان متسائلاً يشوبه التوتر والقلق:

- أخفيته في مكان أمين؟.

- نعم.. هو في مكان أمين.

- لا يجب أن يطلع عليه أحد الآن.

- اطمئن.

سكت للحظات ثم استأنف قائلاً:

- احذر أن يطلع عليه أحد.. حتى هند.. لا يجب أن تراه.

- ...

لم أفاجأ بتحذيره، لكنني تضايقت من تخصيص هند بالاسم؛ فمعناه أنني غافل عما يجري حولي، ومع ذلك شعرت بأسف بالغ، لأنني وافقت على موافقتها أن تنتمي إلى "مركز معارف الشرق الأوسط".. وسمعته يقول:

- لا تغضب مني..

فبادرت إلى القول:

- أنت شقيقي الأكبر الذي أحبه. ولا أغضب منك أبداً.. فقط أنا حزين..

فأضاف:

- ربما تنقلب عليّ وعليك حين تكتشف حبك لهمس الجوهري. سوف نتكلم كثيراً عندما نلتقي.

شعرت بقلبي يدق بعنف كدقات طبّال فوق طبل مشدود. تساءلت بحسرة وأنا أفكر في هند النائمة، أو التي تتظاهر بالنوم.. أيمكن أن تتسبب هند في إيذاء صفوان أو إيذائي؟، لم يسئ إليك

صفوان أبداً يا هند.. يوصيني بك وينصحني بإحسان رعايتك. ولم لا يا رشيد؟؛ فهي أم لحفيدي والدنا الراحل زهران الكاشف. كم أسعدتْه وأسعدتنا. كم فرحت بهما والدتنا الراحلة.. لكنها تراقب وتتنصت يا صفوان. اصبر يا رشيد اصبر فهي تغار عليك..

وجدتني أقاطع هذه اللحظات المزدحمة الصاخبة لأهمس لصفوان:

- الواقع أنا في دهشة. وضائق بملاحقاتها.

فأفضى إلي بأنه "يستشعر الخطر" في كل لحظة تمر، بينما تشعر أنت يا رشيد بضيق من ملاحقة زوجتك المحبة الغيور، ولما تساءلت عن حقيقة استشعاره الخطر - أجابني:

- لا تشغل بالك كثيراً. إنهم فقط يريدون ما عندي.. مخطوط الكتاب الجديد الذي سأكشف به نواياهم..

سكت برهة وقال بتوتر:

- أنا مطارد بعملاء.. وأحب أن تحضر. أريد أن أراك.

- غداً سأكون عندك.

سارع إلى القول:

- أفضل أن تحضر الليلة.

- أمامي على الأقل ثلاث ساعات.

- أرجو أن تحضر سريعاً، سأسلمك المخطوط.

- أنا تحت أمرك.

لم أسمع صوته للحظات.. ثم قال:

- إذا ضاقت بك الحال اتصل بأشرف الساعي. قابلْه وتحدث معه. سبق أن عرفتك به. إنه صديق ورفيق سلاح.. يمكن أن تثق به وتعتمد عليه.

توقف لحظة ثم قال بصوت شابه التوتر والفزع..

- رشيد. أسمع حركات أمام الباب تريبني.. صوت مفتاح يدور في كالون الباب.. أشعر بخطر وشيك و..

انقطع الصوت، فبادرت إلى الاتصال به فلم يجب. حاولت مرة ومرة ومرة.. لم يجب. حاولت مرة رابعة. فتلقيت صوتاً من السماعة بأن "الهاتف الذي طلبته ربما يكون مغلقاً.." فازداد قلقي وكثرت هواجسي، وتنامت ظنوني..

هرعت إلى الداخل قاصداً غرفة المكتب. مضيت نحو "برواز" بداخله لوحة يغطي "الخزنة" الحديدية – الرابضة في فتحة الجدار – ذات الأرقام السريّة، أدرت القرص الذي يتوسطها إلى جهة اليمين.. ضغطت على الأرقام التي لا يعرفها سواي، فانفتح الباب الصغير على مظروف شقيقي صفوان، وبجواره أوراق تخصّني. تحسست المظروف لحظة ثم أغلقت بابها. تحولت عن الباب وبقلبي ضربات تنذر بالخطر والتشاؤم..

شعرت لأول مرة بأن المظروف المستقر "بالخزنة" يمثل خطورة على شقيقي صفوان أجهل أبعادها، وبوسعي أن أتساءل عنها الآن، وأسمح لتيار هواجسي أن يقتحم عقلي المفعم بتخصصي الطبي الذي يستحوذ على مسيرتي المهنية..

حين بلغت منتصف الصالة رأيتها واقفة بثبات أمام باب غرفة النوم. تأملت وجهها وأنا مقبل عليها.. فكرت في مركز معارف الشرق الأوسط الموضوع تحت المراقبة. فكرت في احتمال أن يكون له دخل في مخاوف صفوان، وتساءلت: أيمكن أن يكون لهند الجارحي دور في التجسس عليه؟!. قال لي "مجدي الصياد": للمركز نشاط سياسي مستتر خلف الواجهة الثقافية والإنسانية المعلنة.. لكن سرعان ما استبعدت هذا الاحتمال، وقلت في نفسي: سوف أعالج هذه المسألة بعد عودتي، وإن رأيت أن الحذر ضروري، وأن إضفاء السرّية على تحركاتي أمر مطلوب..

قبل أن أدلف إلى الغرفة تأملت وجهها الحافل بأمارات الفضول.. رأيت أن أعرفها بوجهتي وهي الجيزة لمقابلة صفوان لأمر هام، ولكني آثرت أن أرجئ الكلام عن "نشاط المركز" وصلتها به، حتى ألتقي بشقيقي صفوان.. فأخبرتها وأنا أواصل سيري إلى غرفة النوم أن تعد حقيقة سفر صغيرة تحسباً لأي

طارئ.. في غضون عشرين دقيقة اتخذت طريقي إلى باب الخروج، وباب المصعد.

(٣)

غادرت المصعد بعد أن هبط إلى الطابق الأرضي..اندفعت إلى باب الخروج قاصداً سيارتي الملاصقة لرصيف شارع "بطليموس" المتقاطع مع كورنيش سابا باشا وجليم.. أدرت محرك السيارة وساعة معصمي تشير إلى الثالثة. قُدْت السيارة ببعض التوتر متحاشياً التطلع إلى النافذة المطلة على الكورنيش لأنني متأكد أن زوجتي تتابعني أو تراقبني منها. علي أن أراجع أحوالها بدقة معي. سوف تتيح لي وحدة الطريق التفكير في كل شيء..

ها أنا ذا أغادر شاطئ جليم، وأعبر أثناء اتجاهي إلى مخرج المدينة شواطئ ستانلي، ومصطفى كامل، وكليوباترا وسبورتنج، وكامب شيزار، والشاطبي، ثم انحرف إلى طريق قناة السويس الذي يسلمني الآن إلى الطريق الصحراوي.. مضت فيه السيارة وسط أعمدة الإنارة عدة كيلو مترات. ربما ثلاثة، ثم ما

لبث الظلام أن أحاط بي من الجانبين إلا من ضوئي السيارة اللذين يكشفان لي أسفلت الطريق الأسود..

أحسست بألوان الوحشة وأنا مندفع بالسيارة يشير عداد سرعتها إلى ١٠٠ كيلو متر، وحشة الوحدة، ووحشة الأفكار، المتزاحمة، ووحشة المجهول الذي ينتظرني في مسكن أخي. ووحشة الخوف على مصيره.. لا يبرح أذنيّ صوته العاكس لمشاعر التوجّس والقلق والفزع، وتساءلت في الظلام: ماذا جرى لشقيقي صفوان؟..

فكرت في همس الجوهري.. أحسست برغبة عارمة في تجسيدها وتصوّرها الآن. أحب أن أراك وأتحدث إليك وأبثك خوفي وقلقي. فوردت على ذهني صور متعاقبة لهمس، وصفوان، والدكتور نبيل، والعميد أحمد كامل، والمهندس أشرف الساعي..

هاهي همس الآن تجلس أمامي في النادي البحري يوم الاحتفال بحصولي على الدكتوراه من "هارفارد" حيث تبادلنا نظرات الإعجاب وها هي في حفل زفافها إلى شوقي الجباسي

تجلس شاردة وعابسة. وها هي مبتسمة سعيدة في مكتب جريدة الشهاب بنيويورك عندما حضرتُ للمشاركة في مؤتمر طبي دولي عن "الجديد في جراحة الأوعية"..

وهذه صورة صفوان الذي بارك عواطفنا المتبادلة، ولكنه يحذر من تناميها فهي زوجة وأم لولدين، وأنا زوج وأب لولدين. وهاهو يقول: أنا متفهم يا رشيد للعاطفة التي ربطتك بهمس لكن لا تنس أنك الذي اخترت، ورغم تحفظي على زواجك من هند، فأنا لا أنسى "أكرم وعزيز". كيف أنسى درّتي العائلة؟..

وهذه صورة همس تتطلع إليّ في صمت عندما حضرت ندوة بنيويورك عن "دواعي الإرهاب في الشرق الأوسط" شارك فيها شقيقي صفوان. وقدم الاثنان أفكاراً عن أن دولة القطب الأوحد هي المسئولة عن تفاقم الإرهاب وتوحّشه وتناميه. واستمعت إلى همس وهي تجادل صحفية إسرائيلية بجريدة "إيدعوت أحرنوت"، لأن إسرائيل هي المفجرة للإرهاب لسياستها العدائية الاستيطانية.. ورأيتني أقترح على همس أن تخفف من

صراحتها التي سوف تجرّ عليها المشاكل، لكنها واصلت الهجوم الصريح المقترن بأدلة مقنعة جعلت الصحفية الإسرائيلية تغرق في صمت عميق. ورغم إحساس همس وصفوان بالارتياح لمغادرة الصحفية القاعة، فإنني لم أستطع أن أمنع إحساساً بالخوف على همس وصفوان.. ولم أستبعد عقب هذه الندوة أن يبدأ العملاء في ملاحقة الاثنين ومراقبة من يتصل بهما..

عاودني صوته المتوتر في صمت السيارة المندفعة في الطريق الذي تزداد وحشته مع مرور الوقت، ففكرت في الاتصال بهمس، ونبيل, رقماهما مسجلان بتليفوني. أخبرتهما بمخاوفي، وذكرت نص حديثه إليّ. وكيف أن المكالمة قد انقطعت فجأة.. فأجابني نبيل:

- لا تقلق سوف أطمئنك. في غضون ربع ساعة سأكون هناك.

وقلت قلقاً:

- قطعت نصف المسافة تقريباً. أمامي حوالي ساعة ونصف.

وقالت همس بصوت مشوب بالتوتر:

- اطمئن.. لا تسرع، سنكون هناك أنا والدكتور نبيل.. لا تسرع، واطمئن.

لم أنفذ طلب همس، فزدت من سرعة السيارة التي تجاوزت الـ ١٢٠.. فرغم أن مكالمتي مع نبيل وهمس قد بعثت في قلبي بعض الاطمئنان، فإن خواطري كانت نشطة.. تسلل إلى عقلي ما يشبه اليقين بأن صفوان تعرض أو يتعرض لسوء أو مأزق خطير. ووجدتني أفكر في "هند": هل للمركز علاقة بما يجري؟!. واستشعرت الارتياح لإحساسي بأنني لست وحدي في الانزعاج والقلق على صفوان.. همس بجانبي ونبيل.. فأين هند الجارحي من هذا كله؟!..

بدلاً من أن أواصل التفكير في هند.. - مالت خواطري نحو همس التي تعاني في زواجها ومن زوجها شوقي الجبّاسي؛ كم تحدثت إلى "صفوان" بأنني مستعد لتصحيح الوضع: أتزوج من همس بعد طلاقها لأنها لا تحب زوجها، وأطلق "هند" التي كشفت

تصرفاتها وعلاقتها بي أنني كنت واهماً حين أيقنت أنها تحبني.. وكم اعترض صفوان ليبطل تفكيري.. بل إنه أوصاني بها وحذرني منها.. يمكن يا رشيد أن تنقلب عليك وعليّ.. ولما صرحت له بإصراري على تصحيح الوضع، قال:

- لا أنصحك رغم تقديري لمشاعرك. فهند ستكون خطراً عليك وعليّ وعلى الجميع. استدرجتني مرة في الحديث بوصفي معارضاً للجبروت الأمريكي والنزق الإسرائيلي.

ومرة قال صفوان:

- أعلم أن "المخابرات المعادية" تجنّد عملاء من بين مواطني الوطن.
- هل تشك في هند؟.
- أنا لا أتهم.. ولكن الاحتمال قائم. خاصة أن ابن شقيقتنا مجدي تحدث إليّ فيما تحدث إليك: "مراقبة المركز" الذي تديره الآن "هند" ويرأسه "شوقي الجبّاسي".

- وهل لشوقي علاقة بالمخابرات الأجنبية؟!

- لا تستبعد.. المركز الذي يرأسه موضوع تحت المراقبة، فالاحتمال وارد.

تراجع صوته قليلاً ليبرز صوت زوجتي هند وهي تسارع بإعلان موافقتها على اقتراح شوقي الجبّاسي بحاجة المركز إليها عندما كان مع همس في زيارتنا. أخذ صوت صفوان يجلجل في رأسي:

- أشعر بخطة جهنمية.. يجرى تنفيذها منذ شهور.

سمعت صوتي يجلجل بفزع:

- أنت لم تتهم أحداً بالاسم.

- بل أنا أوجه سهامي نحوهم. وأشير إليهم، ويصدقني قراء كثيرون في جميع أنحاء العالم. قراء سياسيون، وقراء عاديون..

قبل أن أصل إلى مشارف "ميدان الرماية" لأسلك شارع الهرم، وجدتني أتحسس مفتاح مسكن صفوان.. لا يفارق المفتاح سلسلة المفاتيح التي تضم مفتاحي منزلي والعيادة.. عندما اقتربت من الميدان الذي سقطت فوقه تباشير صباح السادسة. أتاني صوتا هُمس ونبيل، أحدهما بعد الآخر. قالا: إنهما وصلا إلى شقة صفوان وضغطا الجرس مرات، وطرقا الباب مرات، ولم يسمعا إجابة.. وأضاف نبيل:

– نحن في انتظارك أمام العمارة ومعها البواب عزّام.

سكت نبيل برهة وقال:

– أعلم أن معك نسخة من مفتاح الشقة، هل أحضرته؟!

– يلازمني دائماً..

ضاعفت السرعة في شارع الهرم الذي خلا تماماً من السيارات والمشاة.. في دقائق وصلت إلى ميدان الجيزة لأنطلق منه إلى شارع مراد عابراً تمثال نهضة مصر، ومديرية أمن الجيزة.. هبطت النفق الذي أسلمني مخرجه إلى شارع النيل.

قطعت فيه حوالي مائتي متر وانحرفت إلى اليسار ليكون الجانب الآخر من الشارع على يميني حيث العمارة الياسمين رقم ٨٠. يشغل شقيقي صفوان الشقة رقم ٢٠ من الطابق الرابع..

وقفت أمام العمارة التي يطل طابقها الرابع على كورنيش النيل. فور نزولي من السيارة أسرع إليّ كل من همس والدكتور نبيل.. كانت الساعة تشير إلى السادسة حين حملنا المصعد ومعنا البواب "عزام" الذي لاحظت عليه بعض التوتر والقلق..

أدرت المفتاح في كالون الباب فانفتح على ممر يؤدي إلى الصالة في بدايته مفتاح النور. امتدت يدي إليه. أضأت فبدت لنا المعالم المعهودة في الصالة الواسعة: الأنتريه الأزرق الدائري، ومنضدة زجاجية مربعة، فوقها كتاب مفتوح.. ولوحات لفنانين محليين وعالميين معلقة بثلاثة جدران بيضاء.. وسط الجدار الأوسط بدت صورتي وأنا أتسلم شهادة الدكتوراه في جراحة الأوعية من رئيس جامعة هارفارد، وبجوارها صورة لرئيس الجمهورية "محمد حسني مبارك" وهو يسلمني وسام العلوم..

عبرنا الصالة نحن الثلاثة بينما وقف أمام باب الشقة البواب عزّام..

اتجهنا إلى حجرة النوم. خفق قلبي وأنا أفتح الباب المغلق، الأباجورة مضاءة. ولم يكن أخي في الفراش.. خفق قلبي مرة أخرى.. كل شيء مرتب، ومنظم. مضينا إلى حجرة المكتب.. فتحت بابها وفتحت النور وأجَلْتُ بصري.. كل ما فيها منظم ومرتب ولا أثر لشقيقي صفوان..

انتقلنا من المكتب إلى الحمامين والمطبخ والشرفة، وحجرة الملابس المزودة بدولاب ملابس وتلفزيون ومكتبة صغيرة وكنبة شازلونج زرقاء. لفت نظري ارتفاع طرف السجادة المفروشة أمام السرير. حركت الطرف المرتفع بقدمي فلمحت ورقة مطوية.. انحنيت والتقطتها، فردت الورقة وقرأت في وسطها:

"إنهم يقتحمون الشقة.. جاءوا لإسكاتي، احرص على ما كلمتك عنه، وعلى ما عند غيرك. آن للجميع هنا وهناك معرفة الحقيقة".

تأمل نبيل وهمس السطور الثلاثة، ثم تبادلنا في صمت نظرات حائرة لدقائق، قطعتها همس باقتراح أن نستدعي البواب الذي لم يبرح باب الشقة.. وسأله نبيل فأجاب:

- طلعت معه "بالأسانسير"، ووصلته بمجموعة كتب لباب الشقة.

فتساءلت:

- في أي ساعة؟

- حوالي الخامسة.

- هل زاره أحد؟

- لا.

فقالت همس:

- ربما يكون خرج.

- ربما.

- تركت باب العمارة بعض الوقت؟

- لا.. يستحيل أن أترك باب العمارة إلا إذا قعد أحد مكاني.

عقبت همس بعصبية:

- أرى أن نتنقل في الشقة مرة أخرى.

بدأت بالسير هذه المرة إلى "المطبخ" وهما بجواري. أدرت بصري في محتوياته فلم أر شيئاً غير عادي، فتابعت السير إلى الحمام الصغير، والحمام الكبير.. ودخلت.. ودنوت من "البانيو". دققت.. فشدّتني نقطة دم صغيرة جداً عالقة بجداره.. تراجعت وأشرت إليها بفزع.. تقدم نبيل واقتربت همس. أحسست بوهن شديد وبحاجة إلى الجلوس، فجلست على حافة البانيو بينما تقافزت برأسي أفكار شتى.. قطعتها همس بقولها:

- يجب أن نبلغ الشرطة.

فعقبت:

- أشعر أن صفوان تعرض لسوء لا أدري حقيقته.

(٤)

وصلنا إلى "قسم الدقي" بسيارة نبيل. يبعد القسم عن عمارة الياسمين بمسافة قصيرة قطعتها السيارة في عشر دقائق، ولم تكن الساعة قد جاوزت السابعة. أوقف نبيل السيارة بالقرب من بوابة القسم العتيق..

قبل أن ندخل من البوابة اجتذب بصري الميدان الصغير.. ميدان الجلاء. يطل عليه تمثال نحيل "لطه حسين". اعترض صفوان عليه لنحوله وكآبته، وطالب بإحلال تمثال آخر مكانه يفصح عن حركة إشراق الرجل واستنارته وقوة إرادته.. سرعان ما تحولت عن التمثال؛ حيث اتجهنا إلى غرفة تتصدّرها لافتة صغيرة بوسط الباب تحمل اسم: رائد هشام الدواخلي رئيس مباحث الدقي. أخبرته بالأمر منذ اتصال صفوان بي في الحادية عشرة مساءً وأفضى إليّ بتوجّسه وأنه ملاحق ومطارد، وطلب مني الحضور بأسرع وقت ممكن، ثم تلقيت منه اتصالاً في الثانية صباحاً وهو متوتر وقال لي: أسمع حركة مريبة أمام باب الشقة.. ثمة مفتاح يدور في الكالون.. ثم انقطع الخط.. حاولت الاتصال

به فلم يجب. ولم أجد بداً من الإسراع إلى سيارتي ومغادرة الإسكندرية.. وفي منتصف الطريق اتصلت بصديقنا الدكتور نبيل جريس، والصحفية همس الجوهري المساعدة لصفوان للإسراع لمعرفة الخبر..

سارع بفتح محضر كلف بتسجيله "أمين شرطة" ضخم الجسم، وطويل القامة، ونظراته غير مريحة. ويدعى بهادر الجبالي.. عندما فرغ الأمين من التسجيل قدمه للضابط الذي قرأ عليّ المحضر.. وقرّر الانتقال إلى المسكن للمعاينة. حينئذ قدمت له الورقة الصغيرة التي وجدتها تحت طرف السجادة، قرأها ثم سلمها للأمين ليسجلها بالمحضر.. ثم نهض وخرج من غرفة جانبية تتصل بغرفة مأمور القسم.. غاب قليلاً ثم عاد وبصحبته شاب بالملابس المدنية، عرفت أنه خبير أدلة جنائية وبصمات..

وصلنا إلى العمارة وصعدنا إلى الشقة ومعنا البواب عزام. طلب منا الضابط الشاب البقاء في الصالة، فامتثلنا بينما وقف البواب أمام باب الشقة.. تنقل الضابط والخبير ومعهما الأمين بين

وحدات الشقة.. رأيتني أقف أثناء المعاينة أمام كل وحدة يقوم الضابط والخبير بفحصها؛ عمد الخبير إلى إجراءات رفع البصمات، والتقاط شعرات، وخيوط، وتحريزها، ورفع نقطة "الدم" الصغيرة بجدار البانيو لتنضم إلى كيس التحريز، ثم أضاف إلى الكيس عينة من كوع صرف حوض الحمام الكبير، وكوع حوض المطبخ، وكوع حوض الحمام الصغير، ثم أغلق حقيبته بعناية وغادرنا جميعاً الشقة.. وطلب الضابط مفتاح الباب فأعطيته له، فأغلق الباب.. قائلاً:

- لا يسمح من الآن بدخول الشقة إلا لجهات البحث والنيابة، لضمان سلامة إجراءات التحقيق.

أغلق الضابط الشاب الباب، ثم أمر الأمين بتشميعه وقال متسائلاً:

- مع أحد غيرك نسخة أخرى؟

- لا. صفوان فقط، وسلسلة مفاتيحه معلقة خلف الباب كما هي.

اتجهنا جميعاً إلى المصعد، الذي هبط بنا إلى الطابق الأرضي.. قبل أن يستقل السيارة سألني عن محل إقامتي، فأجبت:

- شيراتون القاهرة. سوف أخبرك برقم الغرفة بعد إجراءات الحجر واستلام المفتاح.

تحركت سيارة الشرطة.. ووقفنا أمام باب العمارة عدة دقائق تبادلنا خلالها نظرات حائرة.. ثم ودعتنا همس ومضت إلى سيارتها، بينما مشى معي نبيل إلى سيارتي الواقفة أمام عمارة الياسمين ..

(٥)

ودّعني نبيل جريس بيد حمّلها معاني الأمل والصبر والتفاؤل، وتحرك بسيارته إلى الجامعة على وعد بالالتقاء في المساء.. صعّدت عيني إلى شقة الطابق الرابع وقلبي مفعم بمشاعر الأسى والغربة والفقد والغضب والعجز..

اتجهت بسيارتي إلى "شيراتون القاهرة" "جرّشت" السيارة وسرت خطوات إلى البهوالكبير حيث مكتب الحجز. وحجزت الغرفة رقم (٢١٥) بالطابق العشرين، التي تطل على الميدان، وتتيح لي رؤية عمارة الياسمين التي تضم شقة أخي صفوان.. وتساءلت وأنا أجلس في الشرفة: ماذا حلّ بشقيقي صفوان؟!..

أغلقت باب الشرفة وقصدت الفراش، تمددت وسطه بعد أن خلعت ملابسي، وارتديت ملابس النوم، أحسست بوهن فأطفأت النور من مفتاح مثبت بلوحة بظهر السرير. في الظلام لم أشعر بجسدي من شدة الإرهاق، انثالت على رأسي وتنامت فيه خواطر متزاحمة، وأفكار صاخبة، وصور لأشخاص يعرفون صفوان، وأماكن شهدت ندواته ولقاءاته. وقصاصات مقالات بتوقيعه أحدثت دائماً دويّا بين القرّاء هنا وهناك، احتفظ بها في "كتالوجي صور" بمنزلي وعيادتي بجليم. ماذا حل بشقيقي صفوان؟!..

فكرت في الاتصال بالمهندس أشرف الساعي صديق صفوان ورفيقه.. جلجل في رأسي صوته: إذا صادفتك مشكلة

كبيرة فاستشر المهندس أشرف الساعي، ولن يخذلك، وفكرت في التحدث إلى العميد بحري أحمد كامل، لكن سرعان ما عدلت عن تفكيري.. أرجأت إخبارهما بالحادث حتى تتضح أبعاده ومعالمه..

وفكرت في الاتصال بزوجتي (هند) لكن لم أفعل؛ رأيت حاجتي إلى التفكير في غياب صفوان – أهم من زوجتي وولدي أكرم وعزيز.. هم الآن يسبحون في ضباب أبيض كثيف؛ الصور باهتة، والملامح غير واضحة، والأصوات مجرد غمغمات لا تبين.. فأرجأت الاتصال حتى أصل إلى نتيجة؛ فالأمر الآن في أيدي الشرطة والمحققين.. نمت وأنا أقلب الذهن في سبب غيابه وسرّ اختفائه.. ماذا حل بشقيقي صفوان؟!.

صحوت في الثامنة مساء على رنين جرس التليفون.. جاءني صوت نبيل فطلبت منه الصعود إلى الغرفة.. جلسنا في الشرفة.. نعيد أحداث النهار.. وأضاف أنه يقوم من جانبه بالتحرّي عن عزام البواب، وقد كلف شخصاً يثق فيه بمراقبته عن كثب. واتصلت بنا همس وقالت إن زوجها "شوقي الجبّاسي" استقبل

الخبر بفتور شديد أثار فضولي.. وإن الخبر انتشر في مكاتب الجريدة، ولكنني طلبت من رئيس التحرير عدم نشره حتى نتبين أبعاده.. فليس هناك دليل حتى الآن على أن صفوان الكاشف قد أصابه سوء..

(٦)

غادرت الفندق في التاسعة صباحاً وذهني مفعم بالهواجس، مشيت إلى قسم الدقي الذي يواجه الجانب الأيمن للفندق الكبير.. مضيت إلى مكتب رئيس المباحث، الرائد "هشام الدواخلي" الذي لم يكن قد حضر بعد. استضافني الجندي الذي يقف أمام بابه. تقدمني إلى غرفة الضابط "النوبتجي".. الملازم أول "عصام البحراوي" الذي طمأنني بكلمات وردود متفائلة حيث أن البحث جار ومتواصل، منذ أن عاد الرائد هشام أمس من "المعاينة"، والجميع هنا في غاية الاهتمام؛ لأن صفوان كاتب كبير مرموق نحرص على قراءة مقالاته الجريئة. وأضاف:

– سيادة الرائد هشام.. ظل في المكتب حتى الساعة الخامسة صباحاً لم يذهب إلى منزله بمصر الجديدة. فضل أن ينام

في الاستراحة الملحقة بالقسم ليكون قريباً من المكان والأوراق والإجراءات..

أحسست ببعض الرضا لأنني وجدت من يعنى بغياب أخي، ويهتم بالكشف عن اختفائه. دفعني إحساسي إلى الاتصال بزوجتي هند والتحدث إلى ولديّ أكرم وعزيز.. وأخبرت زوجتي باختفاء صفوان.. وربما يستغرق بقائي هنا عدة أيام.. لاحظت أنها لم تبد دهشتها، فلم يظهر في ردودها أثر للمفاجأة، فعندما أردفت بقولي:

- ربما يستغرق بقائي هنا يوماً آخر أو أكثر.

أجابت بهدوء ودون توتر:

- لا أظن.. أتوقع أن يستغرق غيابك عنا عدة أيام.

قلت في نفسي: تتحدث وكأنها على معرفة بما حدث، هل أخبرها أحد؟ الخبر لم تنشره جريدة، ولم تتم إذاعته.. وقلت بدهشة:

- أخبرك أحد باختفائه؟

- لا..

أضاف ردّها الهادئ الجامد هاجساً صاخباً إلى هواجسي وظنوني.. لكن بعد لحظات رأيتني استبعد معرفتها بما حدث.. كيف تكون عالمة باختفائه وهي لم تغادر الإسكندرية؟! حقاً إنها تراقب وتتنصت كلما جاء رنين هاتف، وتفتش ملابسي وحقيبة الكشف الصغيرة حينما أعود إلى المنزل، وأرجع تنصّتها وتفتيشها إلى "غيرة" زوجة زادت على الحد المعقول. تبالغ هند في غيرتها..

ربما تكون غيرتها حقيقية على زوجها الناجح الشهير، أستاذ الطب المعروف، وقد تكون غيرتك يا هند مجرد مظاهرة لإخفاء شيء أنا لا أعلمه.. منذ حديثنا أول أمس وأنا كثير الخواطر نحوك.. هل السبب كلام مجدي ابن شقيقتي عن أن المركز موضوع تحت المراقبة؟.. حقاً ليس من الضروري أن تكون هند متورطة في شيء تراقبه جهات البحث، لكن ماذا يمنع من أن يكون لها صلة بما يجري وما جرى لشقيقي صفوان؟،

خاصة أن صوت صفوان يرن في أذنيّ بين الحين والآخر بأنها مؤهلة للانقلاب عليك وعليّ.. كيف علم صفوان بإمكاناتك يا هند؟!. قلت لها:

- اهتمي بأكرم وعزيز، وسوف أتصل مساء اليوم.

لم تعقب بكلمة، فواصلت:

- ولا تدخلي أحداً المنزل مهما كانت صلته بنا.

خرجت من شردي لأن الرائد "هشام" استدعاني عن طريق جندي مكتبه، نهضت وأسرعت متلهفاً خلف الجندي الذي بدت في وجهه سيماء البشر والتفاؤل.. وقال الضابط هشام:

- التحريات المكثفة التي يشرف عليها مدير أمن الجيزة أثبتت أن شقيقك صفوان غادر مسكنه بعد أن صعد إليه الساعة الخامسة من مساء أمس ٢٠٠٨/١١/١٤، وغادر شقته في الثانية، شهد الساكن في الشقة المقابلة بأنه رأى اثنين يتأبطانه ويتجهان به إلى باب المصعد وكأنهما صديقان له، وتبعتهما إلى داخل المصعد امرأة شابة، ولم

يجد فيما رآه ما يريبه، خاصة أنه كان آتيا من سفر طويل، وفي غاية الإرهاق، ولأنه لم تكن له بالسيد صفوان علاقة حميمة..

قال الرائد هشام:

- كما أن جوازات المطار لم تسجل سفره إلى أي مكان في العالم..

فبادرت قائلاً:

- البواب "عزام" يؤكد أنه لم ينزل من الشقة.

- تم استدعاؤه، مع فهمي الطنطاوي صاحب "السوبر ماركت" المجاور لباب العمارة.

سكت قليلاً ثم أضاف:

- أثبت المعمل الجنائي أن باب الشقة لم يقتحم.. دخل الجناة عن طريق مفتاح وليس بالاقتحام.

لم يمض وقت طويل حتى وصل إلى القسم "عزام" البواب، وفهمي الطنطاوي بصحبة أمين شرطة.. بدأ الضابط بعزام بعد أن فحصه قليلاً، ثم أمر أمين الشرطة الذي يجلس خلف مكتب مجاور بفتح "محضر" حيث دوَّن إجاباته على الأسئلة التي وجهها إليه: السن (٤٠)، محل الميلاد، (أسيوط)، الحالة الاجتماعية (أعزب)، تاريخ استلام عمله بباب العمارة (٢٠٠٨/٩/٢٠)..

وقال الضابط:

- متى رأيت صفوان آخر مرة؟

- أمس عندما وصل في الساعة الخامسة.

- هل غادر العمارة بعد وصوله.

- لا.

- هل تركت باب العمارة بعد الخامسة؟

- أنا لا أترك باب العمارة أبداً إلا لضرورة الحمّام.

- ربما يكون خرج وأنت بالحمام.

- ربما.

- هل يدخل العمارة غرباء؟

- لا..

صمت قليلاً ثم قال:

- ما علاقتك بالغرباء الثلاثة الذين استأجروا شقة الطابق العاشر؟.

- علاقة بواب بسكان يحتاجون دائماً إلى طلبات فأنفذها.

- هل لاحظت شيئاً غير عادي؟

- لا..

- معلوماتك عن شابين هبطا من المصعد بصحبة صفوان الكاشف ومعهما امرأة شابة؟

- لم أرهما، ولم أر صفوان بك إلا عندما وصل إلى العمارة في الساعة الخامسة مساء أمس.

- لاحظت شيئاً غير عادي؟

- لا..

صرفه الضابط واتجه إلى "فهمي الطنطاوي"، وطرح عليه أسئلة تماثل الأسئلة التي طرحها على البواب.. أجاب فهمي عليها جميعاً. ثم أضاف بأنه قبل مغادرته المحل في الثانية صباحاً لفت نظره وقوف سيارة سوداء "شيروكي" أمام العمارة وبعد دقائق رأيت البواب عزام يساعد الرجلين في إجلاس صفوان بك في المقعد الخلفي، وجلست المرأة بجوار السائق.. ولم يرني أحد منهم حتى تحركت السيارة في هدوء..

وأضاف فهمي:

- أشعر أن "عزام" على صلة باختفاء صفوان.

- كيف؟.

- رأيته مرة في ميدان "سفنكس" يجلس في سيارة بجوار الرجلين، وبجوار السائق المرأة الشابة.

أنهى الضابط المحضر بقوله: يعرض الشاهدان: عزام الأسيوطي، وفهمي الطنطاوي على النيابة غداً.. ثم التفت إليّ وقال:

- يمكنك من الغد أن تتابع الموضوع في نيابة الدقي.

شكرته وغادرت المكتب.. وخرجت من القسم عابراً الشارع إلى الفندق.. شعرت بحاجة إلى الانفراد للتفكير الهادئ والتحدث إلى همس ونبيل.. غلبني النوم فاستجبت إلى الاستغراق فيه..

(٧)

صحوت في العاشرة مساء دون أن يطرق أحد باب الغرفة؛ حرصت على تعليق لافتة "الرجاء عدم الإزعاج" بمقبض الباب الخارجي، فذهني مرهق وجسدي أصابه الوهن والكلل..

قلت في نفسي: الآن يمكن الاتصال بهند وبولديّ أكرم وعزيز.. أخبرت زوجتي أنني لا يمكن العودة إلى الإسكندرية قبل

العثور عليه، ومعرفة ما حلّ به.. انتظر ردّ النيابة التي تجري التحقيقات اللازمة. وطرحت هند سؤالاً أدركت للفور مغزاه:

- معك أحد من أصدقائه؟.

تيقظت حواسيّ كلها، لأن سؤالها يهدف إلى السؤال عن شخصين معينين. همس الجوهري، ونبيل جريس، فأجبت بشيء من اللامبالاة:

- معي الدكتور نبيل، والصحفية همس الجوهري.

لكن أحسست بنذر خطر يدنو من صديقيّ، مصدره أنني فكرت في أنها ربما يكون لها دور في اختفاء شقيقي صفوان بعد أن أوقفني "مجدي الصياد" على وضع المركز الذي تديره هند تحت مراقبة مباحث أمن الدولة..

بدلاً من المجاهرة برأيي آثرت الصمت حتى أعود إلى الإسكندرية، وإلى منزلي، وغرفة مكتبي التي تضم "الخزنة" القابع فيها "المخطوط" الذي أوصاني به صفوان. ماذا في المخطوط؟ الآن يمكن الاطلاع عليه. ربما وجدت فيه ما يفيد جهات التحقيق

ويقودها إلى كشف سرّ اختفائه. وهل للمظروف الذي عند همس الجوهري علاقة بالمخطوط الذي في حوزتي؟.. قال الرائد هشام يحدثني: "أثبت خبراء الأدلة الجنائية أن باب شقة صفوان لم يقتحم، وأن الجناة دخلوا بمفتاح وليس عن طريق الاقتحام".. فمن مكنهم من مفتاح الشقة الذي وجدته في سلسلة مفاتيحه؟. هل تم استنساخ المفتاح الذي بحوزتي؟، أيمكن أن يكون لهند دور في استنساخ مفتاحي وحصل عليه الجناة منها لتنفيذ عملية الخطف أو الإخفاء؟.. وعدت أفكر مرة أخرى في صديقيّ الحميمين همس الجوهري ونبيل جريس..

اتصلت بهمس لتحذيرها.. أكدت عليها أن تتوخى الحذر، وأن تدرس خطوات أي تصرّف قبل التنفيذ، وقلت:

- يجب الحذر فأرى أنك مستهدفة أنت الأخرى.
- لا تقلق، فأنا واعية بما يجري حولي.
- عرفت من صفوان أن بحوزتك مخطوطاً.
- في مكان أمين.

- وعرفت من ابن شقيقتي مجدي معلومات.

- لا تصرّح بها وسوف نتقابل.

عانيت بعد حديثي مع همس الجوهري من قلق حاد ملأ عقلي، فرأيتني أسير وحدي في صحراء شاسعة خالية ليس فيها سواي. تحوطني وتواجهني هضاب رملية عالية، يتوارى خلفها مجهول غير مرئي. لكنه يسوق أمامه تجاهي حفيف يأس يغطي الرمال الناعمة، لكنني وجدتني صلباً لا أنحني ولا أتراجع وأواجه بصبر حفيف اليأس الساعي تجاهي؛ فلم يمر سوى يوم على اختفاء شقيقي صفوان. ومغادرتي الجيزة إلى الإسكندرية رهن بتوصلي إلى الحقيقة التي سيكشف عنها دون شك رئيس النيابة الذي يتولى القضية..

غداً سوف يباشر رئيس النيابة ماهر الغمراوي الاطلاع على المحضر الذي أرسله الرائد هشام الدواخلي، وما عليّ سوى الانتظار والصبر.. فأطرقت وأنا جالس في الفوتيه بغرفة الفندق، سانداً رأسي بكفي الأيمن.. رأيتني أقف مندهشاً أمام شقيقي

صفوان. كيف دخل الغرفة؟! لم أشعر بفتح الباب.. أراه الآن بكامل هيئته وبحوزته أوراق وأغلفة كتب ذات عناوين مثيرة: "هيمنة القطب الأوحد"، "الحرب المشبوهة"، "اللوبي القابع في الظلام"، "التمرد على الهمجية"، "الحقوق الضائعة".. "استراتيجية الدولة العبرية"، "القومية المزعومة".. اندفعت تجاهه واحتضنته لكن اكتشفت أن ذراعيّ قد التفتا حول لا شيء، فليس في الغرفة أحد سواي.. ورأيتني لم أتحرك من مقعدي ولكنني أحسست بدفء الحضن الذي بادلني به شقيقي صفوان..

(٨)

هاهو مكتب رئيس النيابة "ماهر الغمراوي" الذي استدعاني صباح اليوم.. أعطيت بطاقة تعريف للحارس الذي دخل الغرفة وغاب بها لدقائق ليعود داعياً إياي إلى الدخول.. شعرت ببعض الأمل وأنا أتجه إلى المكتب الذي يتوسطه. جلست أمامه بعد أن تبادلنا التحية..

جعلت أتأمل وجهه وهو ينظر في أوراق أمامه. حدست أنها أوراق محضر الشرطة الذي أرسله إليه قسم الدقي ظهر أمس.. بعد دقائق واجهني بسؤال حاسم بينما علت وجهه سيماء الجدية الهادئة:

- أتشك في أحد يكون وراء اختفاء شقيقك صفوان الكاشف؟

- لا أشك في أحد.

- تقرير المعمل الجنائي يفيد بأن غرباء دخلوا الشقة دون كسر أو اقتحام..، يؤيد ذلك "شعرات" وآثار أحذية كشفها المجهر والعدسات المكبرة.. وشهادة الجار.

- أيعني هذا أنه تعرض لسوء؟.

- لا يمكن أن نسبق الحوادث. لا يمكن القطع بشيء الآن.

أخبرته بكلمات الورقة الصغيرة التي اكتشفتها تحت طرف السجادة. ففاجأني بأنها ليست في "ملف" الأوراق، وحين سألني عن محتواها رددت سطورها التي حفظتها: "إنهم يفتحون الباب..

جاءوا لإسكاتي. احرص على ما عندك وعلى ما عند غيرك، آن للجميع هنا وهناك معرفة الحقيقة"..

انصرف رئيس النيابة إلى تدوين ملاحظات في ورقة أمامه. استغرق التدوين حوالي عشرين دقيقة، ثم التفت نحوي بملامح بدت فيها أمارات غضب لم يستطع إخفاءها.. ثم دق الجرس ليدخل بعد دقائق قليلة شاب عرفت فيما بعد أنه مساعده "مسعد نور" وهو وكيل نيابة حديث العهد بالعمل.. أعطاه الورقة التي دون فيها ملاحظاته، فاستلمها وانصرف..

فور خروجه أوحى إليّ رئيس النيابة بمغادرة المكتب لأنه بسبيل استجواب عزام البواب، وفهمي الطنطاوي، وهمس الجوهري، ونبيل جريس، ومالك العمارة والرائد هشام الدواخلي، وأمين الشرطة "بهادر الجبالي" الذين تم استدعاؤهم وقال:

– يمكن أن تغادر الآن. وسوف أبلغك بنتائج التحقيق.

وعقبت قائلاً:

- أيمكن السفر إلى الإسكندرية فأسرتي هناك.

- يمكن.. لكن لا تطل مدة بقائك فيها لأننا سنحتاجك.

غادرت مبنى نيابة الدقي وأنا مستغرق في خواطري المفعمة بالأحداث المتوالية التي يبدو لي أنها ستتكاثر وتزداد بحكم تحقيقات الشرطة والنيابة، لاسيما أن الصحف القومية، وصحف المعارضة والصحف المستقلة معنية بالكشف عن لغز اختفاء "صفوان الكاشف".. ولم تهدأ خواطري إلا بوصولي إلى غرفتي بالفندق وتبديل ملابسي، وجلوسي في الفوتيه أتأمل الأحداث والصور والكلام.. ثم نهضت لإحساسي بالإرهاق، وقصدت فراشي الذي احتوى جسدي المنهك، وخواطري التي تنوعت وتشعبت، وبرقت فيها صور واضحة وأخرى باهتة، وبرزت أصوات مرتفعة وأخرى خافتة.. تتعلق الصور والأصوات جميعاً بشقيقي صفوان.. داخلني إحساس بالنعاس؛ فأغلقت النور وأغمضت عيني ليتملكني خدر أو نوم:

"رأيته يتحدث في مؤتمر "بنيويورك" عن "سياسة القطب الأوحد"، أمام لفيف من العرب والأمريكان وجنسيات أخرى. رأيته وسمعته يهاجم بعنف سياسات الأمر الواقع التي ترزح تحت وطأتها الدول الصاعدة.. يسوق الحجة وراء الحجة.. ويبشر بظهور دول قوية أخرى قريباً لها مصالح مخالفة لسياسة القطب الأوحد. ومتوافقة مع سياسات الدول الصاعدة.. ورغم ضراوة معارضة بعض المشاركين في المؤتمر، فإن ثمة أصواتاً عربية وأمريكية أيدت آراءه ووافقت عليها..

ورأيتني أنظر إلى همس الجوهري الجالسة بجواري.. تؤمن همس بما يقوله صفوان.. ورأيتها مشتبكة بالحديث مع صحفية من "معاريف"، لأنها قالت: إن المستفيد الوحيد من سياسة القطب الأوحد هو "الدولة العبرية" التي توالي اغتصاب الأراضي الفلسطينية وأراض عربية أخرى.. فهي دولة توسعية تمارس سياستها تحت سمع دولة القطب الأوحد وبصرها، وأضافت بهدوء:

- أرى أن نهاية "الاستعمار المعاصر" باتت وشيكة مثلما انتهى "الاستعمار القديم".

ردت الصحفية الإسرائيلية بعنف:

- لا تنسى أن الاستعمار "القديم" و"الجديد" ساعدا على تحضّر الشعوب، وكشف عن الموارد "الخبيئة". والثروات الدفينة.

فعقبت همس بهدوء:

- لا تنسى أن ٩٠% من الثروات قد نهبت بأشكال مختلفة، ومصطلحات غامضة غير مقنعة.

وتدخل شقيقي صفوان قائلاً:

- الشعوب الآن يقظة وتعرف أين حقوقها المسلوبة، ولن أكف ومعي المخلصون من أمتنا ومن أمم أخرى عن فضح السياسات المستغلة..

رأيتني أستشعر الخطر الذي بدأ يزحف تجاه صفوان وهمس كثعبان كبير مهاجم؛ فها هما قد أحرقا خلفهما "جسور

العودة"، وخطوط النجاة.. وتوقعت أن تخفف همس الجوهري من وقع كلمات صفوان الأخيرة، لكنها بادرت بتأييد رأيه مضيفة إليه بصوت هادئ خال من الاستفزاز والإثارة:

- ضروري ضروري أن تراجع الدول المساندة لسياسة القطب الأوحد سياساتها تجاه الدول والشعوب الأخرى، فما من دولة - مهما صغر حجمها - تقبل أن تكون خاضعة طول الوقت؛ فسوف يأتي عليها زمن سترفض الخضوع وتواجه دعاته، وأظن أن الوقت الحالي بدأ يشهد حالة رفض الخضوع، ولن يسلم الجميع من الأذى إذا استمرت اللامبالاة بالدول الأخرى.

اندفعت صحفية "معاريف" قائلة:

- الكلام الذي أسمعه الآن تعريض بدولة إسرائيل، وأفهم منه "التحريض" على النيْل من سيادتها واستقرارها.

ورأيتني أتدخّل بدافع الحرص المقترن بالخوف، محاولاً التخفيف من وقع آراء الاثنين:

- أرجو أن تخلو "خلافاتنا الفكرية" من "الإحساس بالتحريض أو التهديد وتوقع الأذى". ففي مثل هذه المؤتمرات نحن ندعو إلى "السلام" وإخلاء الأرض من الصراع.. نحن بحاجة إلى مراعاة مصالح الشعوب الساعية إلى تحقيق الحياة الكريمة.

توقفت قليلاً لأتابع تأثير كلماتي، ثم واصلت الكلام حين رأيت الجميع يتطلعون ناحيتي:

- ليس بالمؤتمرات والندوات وحدها تحل المشاكل، المهم هو تنفيذ ما تمليه ضمائر المشاركين والحاضرين، ويكون الهدف تحقيق "السلام والتنمية".

وسمعتني أقول:

- لا يجب أن نتنابز بالتهديد، ولا نجاهر بالعدوان، ولا أن نتظاهر بما يثير الريب والشكوك.

ورأيتني أتقدم إلى "منصة المداخلات" لأواصل الكلام بناء على طلب أمين المؤتمر.. وبمجرد أن اتخذت مكاني انطلقت

رصاصتان أصابت صدريْ شقيقي صفوان وهمس الجوهري، فلما هرعت إلى المنصة أصابتني رصاصة ثالثة.. لاحظت وأنا أغيب عن الوعي أن المفرش الأبيض فوق سطح المنصة قد تلطخ بالدماء، وأن بعض الحاضرين قد فروا هاربين، والبعض الآخر جعل ينظر إلينا بغير مبالاة.."

توقف حلمي واستيقظت من نومي على جرس تليفون الغرفة. نظرت في الساعة المعلقة وسط الجدار المقابل: لم أنم سوى عشرين دقيقة رأيت فيها "حلم" المؤتمر والاغتيال يسيطر على ذهني سيطرة جعلتني أسمع أصوات الرصاصات الثلاث، وأشعر بآلام الرصاصة التي أصابتني في صدري.. ولأنني لم أهرع إلى التليفون فقد صمت الرنين، حتى سمعت رنين المحمول: صديقي الدكتور نبيل الذي طلبت منه الصعود إلى الغرفة..

حين تلاقت عيوننا لمحت في عينيه أثر بكاء. دققت فيهما فأطرق.. أعرف أنه من أخلص أصدقاء صفوان: جمعتهما الصداقة العميقة بعد أن تزاملا في مدرسة طنطا الثانوية، وجامعة

القاهرة. قرّب بينهما أكثر سفرهما بالقطار من طنطا إلى القاهرة، والعودة منها طوال سنوات الدراسة في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية. كما ازدادا قرباً عندما جندا بالجيش وجمعتهما وحدة عسكرية رابطت على الضفة الغربية للقناة أثناء حرب الاستنزاف. وواصلا اللقاءات حتى بعد أن صار صفوان كاتباً مرموقاً في صحيفة "الشهاب"، وبعد أن حاز نبيل درجة الدكتوراه من السوربون في القانون الدولي.. وكم رأيتهما في نقاش وحوار حول مؤلفاتهما بالعربية والإنجليزية والفرنسية.. وكتبهما مثلت موقفاً معارضاً لهيمنة القطب الأوحد على سياسات الدول الصغيرة والكبيرة على السواء..

كم رأيتهما معاً في الخارج أو الداخل يتحدثان عن مسيرة الوطن الاقتصادية والسياسية، إما في جلسات خاصة أو جلسات عامة في ندوات أو مؤتمرات. والمؤكد أن اهتمامهما بالتحول الفكري والسياسي المحلي والعالمي قد شغلاهما عن التفكير في تكوين الأسرة التي يزينها الزوجة والأبناء. هما الآن يقتربان من الستين ولم يقرر أي واحد منهما أن تكون له زوجة وأبناء..

رفع عينيه وقال بعد فترة صمت كانت كافية لتنداح في نفسي صور علاقته بصفوان التي استمرت طوال السنوات الطويلة الماضية:

- استدعائي رئيس النيابة ماهر الغمراوي لأخذ أقوالي.

سكت للحظات وقال وهو يكوّر أصابع كفه اليمنى ويرفعها في الهواء ثم يهزّها مرات وهو يقول:

- أكاد أجن.. لن أهدأ قبل الوصول إلى الحقيقة.

ويسرد بعد دقائق خبراً أشبه بتفجير قنبلة مفاجئة.. قال:

- لمحت وأنا خارج بسيارتي من "نادي الصيد" مساء أمس "عزام البواب" يجلس في سيارة (شيروكي) سوداء يقودها شاب ضخم الجسم يرتدي جاكت أسود، ويجلس خلفهما بالملابس المدنية أمين الشرطة بهادر الجبالي. تتبعت السيارة وهي تقطع شارع "محيي الدين أبو العز" وتنحرف يميناً إلى شارع جامعة الدول العربية. كانا منهمكين في

الحديث.. وغابت عن نظري السيارة وسط فيضان السيارات.. رجعت أنا إلى شارع النيل وقابلت في السوبر ماركت صاحبه فهمي الطنطاوي ووصفت له سائق السيارة الـ (شيروكي). فأكد أنه السائق الذي رآه، يقود السيارة التي ضمت صفوان يتوسط الرجلين بينما جلست بجواره المرأة الشابة. فأسرعت إلى النيابة وأدليت بما رأيت لرئيس النيابة الذي أمر باستدعاء البواب (عزام)، وأمين الشرطة بهادر الجبالي لإعادة استجوابهما..

شعرت بألم حاد في صدري يماثل ألم الرصاصة التي أصابتني في حلمي الذي حلمت به منذ قليل. وتساءلت: أيمكن أن يكون البواب وأمين الشرطة ضالعين في عملية اختفاء شقيقي صفوان؟!.. وهل ما قاله البواب كان مجرد تضليل لجهات التحقيق وإبعاد الشبهات عنه؟. وكيف فات على الرائد هشام الدواخلي أن يقف على حقيقة "عزام" رغم "معاينة" الشقة وأثناء استجوابه؟!..

رأيتني مدفوعاً إلى حافة حفرة تشتعل فيها نيران تعترض طريقي إلى العثور عليه.. رأيته في وسط النيران يرفع يديه لي وأنا على الحافة.. وما أن أقبلت رغم الحرارة واقتربت من يده الممدودة إليّ حتى توهج اللهب وتعاظمت الحرارة، واندفعت من الحفرة رياح ساخنة هادرة كهدير عاصفة عملاقة، فأطاحت بي ورمتني على بعد أمتار غير قليلة، بينما تناهى إليّ صوته يدعوني إلى مواصلة البحث والتحري..

قلت لنبيل وأنا أشعر بوهج الحفرة النارية وأسمع استغاثة أخي صفوان:

- يمكن للبواب أن ينكر صلته بالسائق.

- ربما ينكر بعض الوقت، لكن لن أدعه حتى يعترف..

- ليس لديك دليل.

- عندي شواهد.

وروى لي أنه شاهد البواب بملابس جنز وأمين الشرطة بهادر بالملابس المدنية مساء اليوم بالقرب من مستشفى مصر

الدولي، اندمجا في حديث هامس فلم يرياني وأنا أعبر بهما قاصداً زيارة قريب لي بالمستشفى.. وسوف أعرض ما رأيت على رئيس النيابة.

تساءلت بأسى وحسرة:

- دكتور نبيل.. هل يسمح وقتك وعملك بالجامعة بما تقوم به؟!

- أوفق بين العمل والتحرّي حتى أصل إلى الحقيقة.

- أيمكن أن يكون أمين الشرطة وراء اختفاء ورقة صفوان التي سلمتها للضابط هشام؟.

- لا تستبعد أي شيء. إنه ضالع ونحن لم نسترح إليه حين رأيناه أول مرة..

خطرت بذهني تقارير صحفية نشرت بالصحف المحلية والعالمية عن تورط أفراد من أجهزة الشرطة والبحث الجنائي في الدول الأجنبية. وتنكرت أنني شاهدت أفلاماً أمريكية وروسية وفرنسية تعالج تورّط مواطنين لقاء صفقات مالية مع المخابرات المعادية، ولاحظت أن الصحف المصرية تتناول حالات "التورط"

التي رصدتها أجهزة الشرطة هنا، وقدمت المتورطين للتحقيق.. وكم احتفيت بوزير داخليتنا وهو يعلن بصراحة عن طريق جميع وسائل الإعلام أنه لا يتردد في إجراء التحقيق مع أي شرطي متورط مهما بلغت رتبته.. وكذلك داخلني ارتياح واطمئنان بأن التحريات الأمنية، وجهات التحقيق سوف تصل إلى نتيجة في الوقت القريب، لكن وجدتني أتساءل: كيف يمكن لمواطن مصري أن يشترك في اختفاء أو اغتيال مواطن مصري آخر؟!. ظل السؤال يتردد في رأسي بعد انصراف الدكتور نبيل قاصداً نيابة الدقي للإدلاء بمعلوماته الجديدة.. رغم ارتياحي بتحرياته الخاصة فإنني لم أمنع إحساس القلق عليه؛ فربما يكون مرصوداً من عين تراقبه وتراقبنا.. إنه متحمس للغاية لمعرفة مصير صديقه صفوان الكاشف. أكاد أراه الآن في مرمى العين الراصدة التي أجهلها..

(٩)

مضيت إلى الشرفة وأبصرت النيل الهادئ المطمئن بعض الوقت. شاهدت فوق مياهه أضواء البواخر التي تمتطيه، وأنوار الإعلانات الحمراء والزرقاء والخضراء بالعمارات المطلة عليه..

أحب مياه النيل وهي تعكس الأنوار المختلفة الألوان. كما أحببت بحر الإسكندرية بصخبه وغموضه. اقترن صفوان دائماً بالنيل لأنه عشق المسكن الذي يشرف على مياهه السمراء. رغم سفرياته إلى دول العالم فإن وهج غرامه بالنيل لم يتأثر ولم ينطفئ.. قال ذات مرة: يحتاج نيلنا أن نبذل في سبيل حمايته المهج والأرواح.. هو عصب حياة وطني الذي لن أكف عن رعايته والدفاع عنه..

جذبني من الشرفة رنين التليفون المحمول.. أغلقت باب الشرفة واتجهت إلى التليفون فوق المنضدة.. أتاني صوت همس الجوهري.. في الاستقبال تنتظرني.. سارعت إلى مغادرة الغرفة وهبطت إلى الطابق الأرضي في دقائق قليلة.. ما إن اقتربت منها حتى انفجرت في بكاء مكتوم هزّني للغاية. فلم أرها باكية قبل الآن.. احتويتها بعيني وقلبي، هممت بأن أربت كفها الصغيرة. عدلت وأنا أقول:

– لا تتشاءمي.. نحن ما زلنا في بدايات التحقيق.

ركزت في انفعال غطى ملامح وجهها الأبيض الصافي المستدير وهي تقول بصوت حزين:

- أرى أن جهات التحقيق عاجزة، وثمة بطء في الإجراءات، ويسري في نفسي يأس من نجاته.

تأملت ملياً آثار الدموع في عينيها الخضراوين. أثارت الدموع حزني وأسفي. قالت وهي تنشج:

- أشعر بالعجز والغموض..

لم تنسكب دموعي رغم أن عينيّ تسبحان فيها منذ مغادرتي الإسكندرية. تذكرت "رصاصة الحلم" التي أرْدتها وأرْدت صفوان في مؤتمر "سياسة القطب الأوحد" بنيويورك. أشعر بخطر حولك يا همس، لاسيما أن زوجك شوقي الجبّاسي" يرأس المركز الموضوع تحت المراقبة.. لك منه ولدان قريبان من عمري أكرم وعزيز، وهل يمنعه الولدان من إيذائك والتخلص منك؟. إذا كان على صلة بالمخابرات المعادية فسوف يضع إشارتها موضع التنفيذ، وسوف يساعد على تصفيتك أنك ربيبة صفوان، وتلميذته

وخليفته. غاب الآن بفاعل مجهول سوف يكون معلوماً طال الزمن أو قصر.. وقلت:

- لدى الدكتور نبيل دليل على أن أمين الشرطة بهادر الجبالي ضالع في اختفاء صفوان.

فعقبت قائلة:

- إذن فأنا على حق في تشاؤمي.

فسارعت إلى القول:

- احرصي على ما بحوزتك من أوراق.

- أشعر بالريبة حولي.. فأرجو أن تتسلم مني "المظروف" قبل سفرك إلى الإسكندرية.. متى تسافر؟!.

- لا أدري.. أنا باق هنا حتى أصل إلى نتيجة..

سارعت همس إلى القول بصوت يشوبه الغضب:

- ما معنى أن يختفي إنسان في وزن صفوان؟ سوف أصارح القراء في مقال الغد بكل ما جرى.

بادرت قائلاً:

- أخاف عليك.. يمكن تأجيل النشر حتى نصل إلى الحقيقة.

فواصلت وكأنها لم تسمعني:

- وسوف أطلق قلمي رصاصات على من أعرف أنهم وراء اختفائه..

هالني ما أسمع منها.. هل ثمة جريمة وقعت بحق شقيقي؟، هل نسجت "المخابرات المعادية" مؤامرة محكمة لإسكاته إلى الأبد؟.. دوري الآن هو معرفة الجناة الضالعين في إزاحته. ليس الصراع شريفاً؛ لم يكن فكر في مواجهة فكر، بل فكر يواجهه خطف واختفاء. أيُّ سياسة؟!. كيف نغض الطرف عن هذا الحادث الجلل؟.. كيف يمكن السكوت على "المؤامرات" الجارية في وطني؟..

قدرت إخلاص همس لشقيقي صفوان، وعمق انتمائها إليه، وقدرت تعاطفه معنا؛ فكم بارك تقارب قلبينا منذ تعارفنا يوم مؤتمر "نيويورك" قال: لا يمكن أن أسهم في قمع عاطفة نزيهة..

كلاكما راشد. ولكن الحذر واجب وحتمي. وقدرت توجّسه من أقرب الناس؛ ففكرت في هند الجارحي.. وشوقي الجباسي.. لكن سرعان ما قلت:

- سأكون هنا دائماً. ولن أسافر إلى الإسكندرية.. أريد أن أكون قريباً من جهات التحقيق.

قبل أن تغادر همس المكان تلاقت عيوننا في نظرات طويلة؛ رأيت في عينيها معاني الخوف والقلق والتوقع واليأس، وأودعت عيني معاني الحرص واللهفة والصبر، فرأيت كل شيء يهون ويتضاءل أمام "إصرار همس"، و" شدّة رغبتي" في الوصول إلى الجناة والمتآمرين؛ فهاهي "صور هند الجارحي وولدي أكرم وعزيز" يغلفها ضباب كثيف، بينما جلجل في سمعي صوت صفوان: يحذر وهو يستنجد، ويشير إلى أشباح جناة يتقنعون بأقنعة سوداء، وهاهو يردد بصوت واهن: عليك أن تلاحق الجناة لإقرار الأمن وتحقيق الأمان، وهذا صوتي يجيب مفعماً بالأسى، ومثقلاً بالحزن: اطمئن يا أخي اطمئن. سوف أطارد وألاحق الجناة مدى الحياة..

(١٠)

اتصل بي في الفندق مكتب رئيس النيابة.. ودعاني مساعده وكيل النيابة الشاب مسعد نور إلى الحضور في العاشرة صباحاً.. اتجهت إلى نيابة الدقي بسرعة الصاروخ. بمجرد أن دخلت المكتب بادرني رئيس النيابة ماهر الغمراوي بقوله:

- تحرياتنا اتسعت وزادت. تجاوزت الجيزة والقاهرة.

- هل من أمل؟.

- شملت التحريات جميع معارف صفوان الكاشف، وأقاربه وأصدقاءه، وزملاءه في الجريدة، وسكان العمارة، والمحال المجاورة، ووضعت بعض التليفونات تحت المراقبة.

سكت رئيس النيابة برهة ثم قال بهدوء:

- تحرينا وراقبنا أقرب الناس إليه.

تذكرت تنصّت زوجتي هند، وتحذيرات صفوان من أن أثيرها باهتمامي بهمس الجوهري. هممت بأن أروي له تنصّت

هند، وتحذيرات أخي، وهواجسي تجاهها، لكن هذا الخاطر سرعان ما توارى بوجهي أكرم وعزيز، فأطرقت بضغط تقاعسي عن إخباره.. وسمعته يقول:

- تحرينا عن همس الجوهري، وزوجها شوقي الجباسي الذي وضعناه تحت المراقبة.. وقد أدلت همس قبل حضورك بأنها شاهدت زوجها "شوقي الجباسي" يحاول السطو على مخطوط كتاب لشقيقك صفوان سلمه لها قبل أسبوع من اختفائه، فنقلته إلى مكان آخر لا يعلمه.

عقبت بقولي:

- أخبرني صفوان بالمخطوط، وطلب مني أن استلمه منها وأضعه في مكان أمين لحين نشره في الوقت المناسب. وبالمناسبة لدى مخطوط "بخزنتي" في الإسكندرية. لم أقرأه، وأوصاني ألا أطلع عليه أحدا، وعلى الأخص زوجتي هند الجارحي.

فرد بسرعة:

- عنده حق في ضرورة إخفائه عن زوجتك.

سكت لحظات وواصل بتوتر:

- للأسف ورد اسم زوجتك "هند الجارحي" في مكالمة لشوقي الجباسي عن طريق تليفونك بالإسكندرية الذي تمّ وضْعه تحت المراقبة. طلبت هند في المكالمة: ضرورة التخلص من "همس الجوهري"، "رشيد الكاشف" لأنها غير آمنة بوجودهما.. ودعته إلى التصرف السريع قبل أن يصل رشيد إلى الإسكندرية..

أصابتني المفاجأة بوجع في قلبي وألم في رأسي. فرغم أن شكوكي حامت حول هند بسبب تنصتها وملاحقاتها، وتحذير شقيقي منها، فإن تحريضها بالتخلص مني ومن همس أثار هلعي.. لم يخطر بذهني أن تحرض على تصفيتي.. كيف هنت عليك يا هند؟! ألم تفكري في أكرم وعزيز؟! أي عقيدة تدفعك إلى هذا الشر المستطير!.. وتساءلت بحزن: منذ متى يجمع مثل هذا الحديث المشبوه زوجتي وشوقي الجباسي؟، وكيف اقتصرتُ على أن

تنصّتها راجع إلى غيرة امرأة تحب زوجها وتحرص عليه؟!.. أنا واهم مخدوع. منذ متى وأنا واهم مخدوع؟!..

أصابني دوار وأنا أغادر مبنى النيابة.. وخلال إحساسي به وجدتني أتصل بهمس وأطلب منها أن توافيني في العاشرة من صباح غد في كازينو برج القاهرة.. وافقت بسرعة ودون تردد قائلة لي: إنها عائدة الآن من الجريدة بعد أن راجعت مقالاً عن حادث "الاختفاء" وسوف ينشر غدا..

(١١)

سبقت همس الجوهري إلى "البرج".. صعدت إلى الطابق الثلاثين، واتخذت مكاناً خلف منضدة في مواجهة الصاعد إلى الكازينو الدائري الذي يشرف على الجيزة فتبدو للعين الأهرامات الثلاثة، والقاهرة حيث المقطم، وقلعة محمد علي، وقلعة صلاح الدين، بينما تخلب البصر مياه النيل الفضية، المتلألئة تحت شمس نوفمبر الساطعة الدافئة..

رأيتني أعود إلى الأهرامات التي تتوسط صحراء ممتدة، وصخور المقطم التي تشرف عليها القلعتان.. تأملت وتساءلت: كم شخصاً تواروا في صحراء الأهرام، وبين صخور المقطم بفعل فاعل مجهول معلوم..؟!. هل توارى شقيقي في رمال الصحراء أو بين الصخور الكالحة؟. أم أنه في مكان مغاير لا يعلمه إلا منفذ الجريمة، والآمر بالتنفيذ؟!.

جعلت انتظر وصول المصعد الذي سينفتح بابه على القاعة المستديرة. مرت دقائق، ودقائق.. مرّ وقت لا أدري مداه.. تأخرت همس وهي المشهورة بدقة المواعيد.. أصاب نفسي وّهن خدّرني وأنا أتطلع إلى باب المصعد راجياً أن ينفتح عليها.. هل يسلمني الخدر إلى "نوم" وأنا الذي ضربت الموعد وحددت المكان؟. كيف أنام في كازينو يحفل بالعشاق من الشباب والشيوخ"! أنت الذي اخترت المكان لبعده عن الرقباء، لإحساسك بأن "رشيد و"همس" و"نبيل" مطاردون بعيون راصدة، ربما تسلمان منها لأنكما ستكونان وسط عشاق متيمين. هاأنت قد بدأت في

استخدام طريقة التضليل التي تساعد على النجاة. ربما وضعوا أجهزتهم في أماكن أخرى قدروا أن يتم فيها اللقاء: أبهاء الفندق، أو الجريدة، أو السيارة، أو التليفون الأرضي، أو المحمول..

شعرت بوهن مضاعف أصاب نفسي فأغمضت عيني وفتحتهما عدة مرات. ومرة أغمضت وفتحت فرأيته في الطرف الآخر من المنضدة، صحت طرباً وفرحاً.. يحتل الطرف الآخر من المنضدة شقيقي صفوان.. هممت بالنهوض لأندفع نحوه حتى تحتويه يداي، لكنه أشار إليّ أن أجلس وأستمع إليه، فعلت رغماً عني.. قال بصوت خفيض:

- همس الجوهري طريقك إلى الكشف عن مصيري. زوجها شوقي الجباسي شارك في التدبير، كلّفها أن تتحرى عن نشاطي. نجح في تجنيد زوجتك بينما استعصت عليه همس لأنها تنتمي إليّ وتحبك. منذ أسبوع أخبرني ابن شقيقتنا مجدي الصياد بتآمر زوجتك هند. أنا حزين لأنها أم أكرم وعزيز.

ضربت سطح المنضدة عدة مرات. دوّت الضربات مثل أصوات القنابل، صحت في فضاء القاعة الزجاجية:

- هل كنت أعاشر عميلة مخابرات معادية طول الوقت وأنا لا أعرف؟!.

كررت السؤال وكررت بصوت عالٍ منتظراً إجابة أخي صفوان، لكنني اكتشفت أنني أصيح في فراغ، لم يكن أحد أمامي؛ المنضدة لا تجمع سواي.

أخرجني من لجة تفكيري صوت همس الجوهري، نظرت إلى وجهها الباسم تسطع فيه عينان صافيتان؛ اجتمعت فيهما الزرقة والخضرة، تعلوان أنفاً شامخاً دقيقاً، وشفتين مكتنزتين قرمزتين.. بدت متوهجة متحفزة، مثلما رأيتها في مؤتمر "نيويورك".. تفصح الآن عن بهاء كما أفصحت عنه يوم المؤتمر.. أحسست بضربات قلبي عنيفة لأنني تذكرت "رصاصة الحلم" التي استقرت في صدرها فأردتــْها.. خفت عليها فتلفت حولي وأنا

أتمنى أن تحتجبي عن العيون؛ لكي لا يعرف الرقباء الطريق إليك..

دعوتها إلى الجلوس . جلست.. أخرجت من حقيبتها نص المقال الذي سيصدر صباح الغد في جريدة الشهاب. دفعته لي وقرأت عنوانه "اختفاء مريب لوطني شريف".. طالعت العنوان والمقال بعينين متلهفتين.. ثم توقفت عند فقرة مقلقة لأنها بدت اتهاماً صريحاً بأن خلف اختفائه مخابرات معادية لدولة مجاورة.. " ولا يمكن الصمت عن اختفاء صاحب القلم الشريف. ثمة قوىً تعرف نفسها وأعرفها وراء هذا الاختفاء. ولن تتوانى جهات البحث عن الكشف عنها.. ولن يقف المخلصون مكتوفي الأيدي.. طالب الرجل بوقف "المؤامرات" التي تدبر في عواصم الأعداء، هل نسكت على التصفيات الجسدية داخل الوطن وخارجه؟!"..

نحيت المقال جانباً وتطلعت إلى وجه همس القمري. أدَمتُ فيه نظري بحسرة عاشق أقمعتْه روادع الواقع؛ فهي زوجة وأم لولدين، وأنت زوج وأب لولدين، ارتضيتما الواقع وجرى معه

"التعايش"، واكتفيتما بسفارة عيون تبث رسائل الوجد المنعش للقلب والوجدان، عن رضا بما أراده القدر، و"خضوع" للروادع، و"تسليم" بضغط الواقع..

أدمتُ – مرة أخرى – النظر في وجه القمر، فأبصرت فيه سحابات همّ ووهن. أدركت أن بقلب همس نذير سوء ما لبث أن عكسته عينان خلتا من صفاء ميزها كم اعتدت عليه ونشدته في أوقات وحدتي وأوقات انشغالي. فتساءلت:

– ضايقك أحد؟

– تلقيت منذ ساعتين تهديداً.

– ممن؟

– مجهول كما هو متوقع.

– كيف وصلك؟

– الواقع أنني تلقيت تهديدين. أحدهما بالجريدة، والآخر بصندوق بريد مسكني.

- بماذا هددك؟

- بكلمتين: "ستدفعين الثمن ".

- ولا يهمك.

- أشعر أن التهديد حقيقي.

قلت متعجباً:

- رغم أن المقال لم يظهر بعد!.

- ربما سرّبه أحد بالجريدة.

- ربما.. يمكن زرع العميل في أي مكان.

أطرقت للحظات رأيت فيها وسمعت "رصاصة الحلم" بنيويورك. فجفلت وتوترت، ورفعت عينيّ بوجل مازجه الرعب.. فقالت.

- آسفة لإزعاجك..

ثم عقبت قائلة:

- أحضرت "المخطوط" بناء على توجيه صفوان.

أخرجت من حقيبة أوراقها المظروف الذي يضم المخطوط. قدمته لي قائلة:

- أخشى على المخطوط من يد شوقي.. لا أثق فيه.

فضضت المظروف وطالعت عنوانه بعينين شاردتين وقلب مضطرب:

"مناورات قاتلة – الانتصار على الخوف".

تأملت العنوان للحظات رأيت خلالها صور صفوان وهو يجاهد بكلامه في ندوة هنا أو هناك، وبمقالات في جريدة قومية أو معارضة، أو مستقلة. وسمعت جلجلة صوته الواثق في المستقبل القريب..

أعدت المخطوط إلى المظروف بعناية. ثم سلمته لها قائلاً:

- احتفظي به في مكان أمين. فلم أقرر بعد السفر إلى الإسكندرية. هو أكثر أماناً عندك من الفندق أو السيارة.

بدا لي أنها اقتنعت بوجهة نظري، فأعادته إلى الحقيبة في هدوء وهي تدير بصرها في حركة الخارجين من المصعد، والجالسين حول المناضد القريبة والبعيدة.. بينما أرسلت بصري إلى فضاء الأهرامات، وفضاء المقطم والقلعتين، وفضاء النهر المحبوب الممتد الذي لا يحده بصري، وفضاء الجسور الواصلة بين الجيزة والقاهرة: قصر النيل، الجامعة، الملك الصالح، و ٦ أكتوبر.. قلت في نفسي بشجن: كيف لنا أن نحافظ على هذه المعالم ونزعاها في مواجهة "المناورات القاتلة" التي يدبّر لها أعداء الوطن؟ كيف نحميك يا وطني من فئة تتفنن في إيذائك والنيل منك؟ هل يمكن أن يستحق هؤلاء وصف "المواطنة"؟.. وجدتني أصيح بصوت غاضب:

- لا يشارك في إيذاء الوطن إلا متآمر أو عميل.

التفتت همس إليّ بوجهها القمري ووافقت بهزه رأسها لتنسدل منه خصلة من شعرها الذهبي الناعم أعادتها بأصابع كفها الصغيرة.. ثم رمقت ساعة المعصم مرة ومرة ومرة.. لم تبد رغبتها صراحة في الانصراف. لكنني شعرت أنها تريده. ربما

تفكرين مثلي في رقباء يترصدون حركتك.. وربما لا تريدين أن تخضعي لسؤال أين كنت؟، أو لماذا تأخرت؟ أو من قابلت؟.. ووجدتني أفكر في شوقي الجباسي: كيف غاب عني أنه دبّر لاختراق حياتي العائلية؟ زوجك يا همس عميل كبير وخطير؛ كيف لم أربط بين تجنيد هند واختفاء صفوان إلا بمعونة رئيس النيابة ماهر الغمراوي؟! شوقي الجباسي. لن أكف عن ملاحقتك، ولن أتهاون عن متابعتك والإيقاع بك مهما طال الزمن..

(١٢)

انداحت برأسي خواطر عقب انصراف همس الجوهري، ففكرت في الخطر الزاحف نحونا كإعصار هادر، تساءلت وأنا أتنكر مهنتي وتدرّجي العلمي والوظيفي: هل أنا قادر على التصدّي لهذا الخطر الزاحف؟. رسالة تهديد همس محددة وواضحة بأن تكف عن تناول حادث اختفاء صفوان الكاشف، فماذا سيحدث لها بعد أن يتصدر غداً مقالها العنيف الصريح صحيفة "الشهاب"؟. هل سيتضاعف التهديد ويتكرر؟ أم أن مصيرها قد

تحدد بإزاحة غامضة أو اغتيال صريح؟!. أيمكن لهمس أن تتراجع عن قرار التحدي مراعاة لولديها عدلي وكريم؟ لا أظن أنها ستخضع لضغوط التهديد، فكم واجهت هنا وهناك عواصف التآمر والتدبير. وسمعت صفوان يقول:

- لا يمكن أن تستسلم همس الجوهري أمام أحد ما دامت على حق.

وسمعتني أقول:

- اكتشفت صلابتها وقوة دفاعها يوم مؤتمر نيويورك: فقلت هاهي التي كم تمنيتها وبحثت عنها.

وسمعت صفوان يقول:

- احذر فهي زوجة لرجل خطير عليه علامات استفهام؟

وهمست لها في نفسي: وجهك القمري ملأ فكري وقلبي وعيني، ولا أراك تخصين رجلاً آخر كلما قابلتك أو فكرت فيك،

ولم تكن بهجتك أثناء اللقاء وفي التليفون إلا تأكيداً على أنك وهبتني روحك بعزم و تصميم..

اتجهت إلى المصعد وهبطت.. مضيت إلى سيارتي وأنا أفكر في "التهديد" الذي تلقتْه همس. وعندما ابتعدت عن مبنى البرج حدثت نفسي بأنني خائف وموهوم من رسالة التهديد، ومن تصميمك يا همس على التحدي، وعزمك على مواصلة الكتابة عن حادث اختفاء "رمز النضال الوطني". وسمعتها تقول:

- لا ينتظر مني أحد أن أخضع لأي تهديد.

- بماذا ستواجهينه؟

- بقلمي، فهو الرصاص الذي أجيد توجيهه إلى خصوم شرفاء الوطن.

الآن أمامي ثلاثة أخطار: اختفاء شقيقي، وتهديد همس، وتآمر هند أم ولديّ أكرم وعزيز.. أحسست بشوق إليهما وأنا أعبر جسر الجلاء قاصداً الفندق الكبير. فكرت في أن أسافر الليلة

إلى الإسكندرية لرؤية ولديّ ولمواجهة خطورة زوجتي أم أكرم وعزيز، وحدثت نفسي:

أنت الآن معرض للأذى أكثر من أي وقت مضى.. مرة قالت همس في المحمول: أنت تحتفظ بمخطوط كتاب أعرف خطورة محتواه.. حدثني عنه صفوان، ونصحته بإرجاء نشره إلى حين.. جلجل صوت همس في أذنيّ فرأيت "خزنة" مكتبي بالإسكندرية في عينيّ، وقلت في نفسي يجب إخراج المخطوط من مسكني إلى مكان آخر آمن..

آه.. ها أنا ذا محاصر بأخطار ومكائد. خلفها قلّة أعرفهم، ولكن أجهل الكثرة المتربصة في الظلام، وفي النهار، في مدخل العمارة، والجراج. وفي السيارة أتحرك بها بين الكلية، والمستشفى الجامعي، وعيادتي بجليم.. لكن رغم "التربص" سوف أواصل السعي لكشف الحقيقية.. كيف أركن إلى الاستسلام وصوت استغاثة صفوان يرن في أذني ويتجاوب في أعماقي؟.. منذ آخر مكالمة بالإسكندرية قبل ستة أيام وأنا أتعذب بصوته المستغيث.

من هؤلاء الذين أخفوه؟ أي قوة! وأي جبروت! وأي جريمة عجزت – حتى الآن – عن كشفها جهات التحقيق!..

وجدتني أفكر في هند.. تذكرت التحذير الذي لم أعطه القدر الكافي من الاهتمام. أسمع صوت صفوان الآن: احذر، احذر، احذرهما. هاهي تتلصص وتتنصت. وها هو شوقي الجباسي برفقة همس على مائدة العشاء. كم تودد إليّ عقب العشاء بقصد توطيد صلته بي. سرعان ما تصادقنا، لاسيما أن زوجته "همس" كانت حاضرة في كل لقاء. وليست دعوته لنا في فيلته بالمنتزة، وهنا في فيلته بجاردن ستي إلا لمزيد من الاختراق لحياتي العائلية. لم أفكر لحظة في أنه عميل يشارك في مخطط سري .. وكم استمع إلى حديثي مع همس عن "التحولات السياسية"، و"حثّ الشعوب على رفض سياسة القطب الأوحد"، و"ضرورة إعادة النظر الرسمي في اتفاقية كامب ديفيد" بسبب الاستفزازات الإسرائيلية"، و "فتح ملف قتل الجنود المصريين الأسرى في حرب ٦٧". لم يبال كثيراً بما يسمع وكأن ما نردده لا

يعنيه. ومع ذلك قالت همس مرة في المحمول: أشعر أنني موضوعة تحت المراقبة. أشعر بمن يحصي على حركتي وسكوني.. لا أعرف مَن المراقب لكنني أشعر به طول الوقت..

(١٣)

مضت سبعة أيام منذ مغادرتي الإسكندرية وما زال لدى رئيس النيابة ماهر الغمراوي أمل في كشف غموض الحادث والتوصل إلى صفوان.. في صباح اليوم اتصلت به فدعاني إلى الحضور.. قال لي وأنا بمكتبه:

- الوقت يجري بسرعة، العيون مبثوثة في كل مكان. نحن نحاول بشدة التوصل إليه. إنه محتجز في مكان ما بعد خروجه من مسكنه، أو بعد أن أرغم على الخروج.. البحث الجنائي نشط، وأتلقى تقارير على مدار الساعة. اطمئن: اختفاء شقيقك بالنسبة لي "قضية القضايا" خاصة أن الوزير يتابع بنفسه الإجراءات أولاً بأول. صفوان الكاشف يستحق البحث والسهر والمخاطرة..

تأملته وهو يتكلم بحماسة فياضة، فأحسست ببعض البشر وقليل من الاطمئنان؛ فلم أعد وحدي المهموم باختفائه؛ ثمة من يتقدمون الآن للمشاركة في حمل عبء الاختفاء، وثقل الغياب.. ها هي جهة رسمية تصرّح دون تردد بأن "صفوان الكاشف يستحق البحث والسهر والمخاطرة"..

- أرى أن تسافر إلى الإسكندرية لمدة يومين أو ثلاثة، وعليك أن تكون حذراً.

عقبت على قوله متسائلاً:

- هل من أمل في العثور عليه؟

- الأمل موجود دائماً.. جهات التحقيق لا تعرف اليأس، الوصول إلى الهدف مقترن باستمرار الأمل..

- الوقت طال.. مر أسبوع على غيابه.

- القضية تجاوزت أخاك..

صمت برهة وقال بصوت آسف حزين:

- للأسف الوطن مهدد.. مساء أمس اغتيل عالم الجغرافيا الدكتور كمال وهدان بمنزله بالدقي وهو نائم نتيجة تسريب غاز البوتاجاز.

تساءلت برعب وهلع:

- اغتيل.. ما الهدف؟

- إسكاته إلى الأبد والسطو على مخطوط كتاب قال بعض أصدقائه أنه عن "تاريخ القوميات الاستعمارية وعدم شرعية الدولة العبرية المجاورة".

- هل قيد الحادث بأنه قضاء وقدر؟

- تحقيق الشرطة أكد أن الحادث بفعل فاعل اقتحم مسكنه وهو نائم، وثقب خرطوم الغاز وخرج.

- الحق أنني خائف على همس الجوهري ونبيل جريس.

- عندك حق.. الحذر واجب..

فحصني الرجل بعينين خلتا من الأمل.. ثم قال:

- أرى أن تسافر.. ودعنا نواصل التحقيق.. وكن على اتصال بي بعد يومين أو ثلاثة.

وأنا أغادر مبنى النيابة كلمت الدكتور نبيل جريس قبل أن استقل السيارة.. دعاني إلى الحضور إلى مكتبه بالكلية، فلديه ساعة فراغ قبل المحاضرة التالية.. قطعت بسيارتي المسافة إلى شارع الجامعة ثم دخلت الكلية في عشرين دقيقة.. قصدت مكتبه، استقبلني واجماً وهو يقول:

- أرأيت؟! اغتالوا الدكتور كمال وهدان في منزله. عرفتَ؟

- عرفتُ من رئيس النيابة منذ قليل.

- نزل الخبر علينا كالصاعقة.. لكن أنا كنت أتوقعه، فهو الآخر صريح جريء..

- والعمل؟

- نواصل ما بدأ كمال وهدان، وصفوان الكاشف.

(١٤)

عندما عبرت ميدان الرماية واتخذت طريق مصر – إسكندرية الصحراوي، عاودتني أحاسيس الخيبة والفشل، وفارقني أمل العثور عليه؛ بدت لي جهات التحقيق عاجزة عن الوصول إليه، وها هو اغتيال كمال وهدان يزاحم إجراءات البحث عن صفوان الكاشف.. رثيت لكل من يبذل المحاولة وبخاصة "ماهر الغمراوي" رئيس النيابة ومساعده وكيل النيابة الشاب "مسعد نور".. لكنني في الوقت نفسه رأيت أن استعادة الأمل في إنقاذ أخي أو العثور عليه رهن بتحرّ خاص وتحرّك فردي من جانبي..

حدثت نفسي بينما ملأ لون ظلام العاشرة الطريق الصحراوي أمامي واحتوي سيارتي – بأن "التحرّي" يجب أن يكون سرياً، وخاضعاً لتفكير منظم وتدبير محكم دون تقصير في عملي بالجامعة، أو التخلي عن عيادتي، لتبدو حركتي هنا وهناك غير مثيرة لشكوك رقيب أو جاسوس يترصدني.. وإذا غبت عن الجامعة يوماً أو يومين فبإجازة رسمية، ولا أتخلف عن عيادتي إلا

إذا حل طبيب من تلاميذي أكلفه بالإشراف عليها. وسوف يقدر مرضاي غيابي؛ لأن حادث اختفاء صفوان الكاشف عنيت بنشره كل يوم جميع الصحف القومية والحزبية والمستقلة حتى الصحف العربية والأجنبية.. ويجب أن يكون بدء التحري بمنزلي الذي تقطنه معي هند وولدانا أكرم وعزيز..

هاهو صوتها الآن بتليفوني المحمول وأنا أتجاوز "الرست هاوس"، تساءلت: هل أنت في الفندق أم في مكان آخر؟ وهل سيمتد بقاؤك في الجيزة أياماً أخرى؟. قلت لها:

- ربما أحضر بعد يوم أو اثنين.

تناهى إلى صوتها هادئاً وديعاً خالياً من التوتر والانفعال:

- أتمنى لك التوفيق.

لم يشعرني صوتها بصدق التمني.. هكذا بدأت أولى خطوات التحرّي. أخفيت موعد وصولي عنك وسوف أفاجئك بحضوري. سأتحوّل يا هند بعد قليل إلى مراقب لحركتك، ولكلامك، سأطاردك دون أن تشعري بي. سوف أصل إلى صفوان

عن طريقك.. أشعر بقوة أنك المعبر إليه.. لكني ما لبثت أن شعرت بالقلق والفزع على مصير أكرم وعزيز؛ كيف آمن عليهما من هند؟! هل يمكن أن تتنكر للأمومة وتؤذي ولدينا؟! في شرائع المخابرات المعادية يتم التضحية بالغالي والنفيس ما دام في صالح التخطيط وإنجاح التدبير، صارت هند أداة طيعة في يد شوقي الجباسي، ومَن خططوا لإزاحة صفوان الكاشف، وكمال وهدان. كيف يمكن لي الاطمئنان؟.. كيف لك أن تطمئن وقد أخبرك "ماهر الغمراوي" أنها تحرض على التخلص من رشيد الكاشف، والد أكرم وعزيز. عليك ألا تجاهر بالعداء الآن وإلا سارعوا إلى تصفيتك قبل تدبير "سلامة" أكرم وعزيز..

عدت إلى تأمل الطريق المظلم إلا من ضوء سيارتي، خشيت أن تحدث مفاجأة طريق وأنا شارد.. نالني فجأة هاجس أقلقني؛ فربما أكون مراقباً من أحد ما في هذه السيارة العابرة أو تلك، أو التي تحرص على أن تكون خلفي أو بمحازاتي، فلن يتوانى شوقي الجباسي عن تدبير قرار تصفيتي ما دامت هند

الجارحي قد رأتني خطراً عليها وعلى "النشاط السري لمركز معارف الشرق الأوسط لحقوق الإنسان"..

فكرت في شوقي الجباسي وهو يصدر في أول لقاء يجمعنا قرار تعيين هند في المركز في وظيفة مدير، وكيف أنني قد وافقت بارتياح – بعد إبداء موافقتها الفورية – لكي تنصرف عني فتكف عن ملاحقاتي.. لم تكن همس أقل ارتياحاً لموافقة هند؛ فقد أدركتْ منذ أول مقابلة مع هند أنها مصدر تعاسة لرشيد الكاشف..

هاهي هند تظهر في رأسي بكامل هيئتها فوجهت إليها كلامي: كيف هانت عليك العشرة والأمومة والزوجية فاتفقت مع الشيطان؟! كم مرة قابلت الوغد؟ وماذا قلت له؟ وما الذي قاله لك؟ وأين كان أكرم وعزيز وقت اللقاء؟! تفننت في التكتم والتمويه لدرجة أنني لم أشك لحظة في أمانتك وإخلاصك.. كيف هنت عليك فاستجبت لإغراء شوقي الجباسي؟!. انكشف المستور أخيراً؛ تحريات المباحث أثبتت تورطكما، وها هي مكالمتك سمعتها

"المراقبة" وسجلتها. تحرضينه فيها على تصفيتي، قائلة له: "لن يكف عن البحث.. عنيد جداً. يملك عناد الثيران.. يجب تصفيته.. يجب وقف خطورته".. ألم يمنعك من التحريض ذكرى لقائنا الأول العامر بالإعجاب والانجذاب بنادي سبورتنج؟ ألم يردعك زواج سبعة عشر عاماً؟، ألم تفكري في أننا أبوان لأكرم وعزيز؟.. هل فكرت قبل التحريض في قول صفوان – كلما زارنا – إنهما "درة عائلة الكاشف" فحافظا على "الدرة" من الكسر والانكسار والقهر والضياع؟، كيف تحرضين على إزاحتي أو تصفيتي وأنا الذي لم أسئ إليك يا هند طوال سبعة عشر عاماً؟!. كيف انخدعت بتظاهرك بالحرص عليّ فلم أقم بأي إجراء يوحّدني بهمس الجوهري؟!. كانت عينا همس تهمسان بكلام استبعدته فلم أفكر فيه، كيف لم يراودني الشك حين اكتشفت انفراد هند وشوقي في ركن من شرفة منزلي أثناء زيارتهما الأخيرة وهما يتهامسان، بينما حدثتني لحظتها عينا همس بكلام لم أفهمه فلم أسمعه؟!..

(١٥)

هاهي العمارة تعلوني حين أوقفت السيارة بجوار الرصيف. خرجت وتأملت الطابق الخامس الذي بدا لعيني واضحاً بأنوار شارع بطليموس. لفحتني نسمات ديسمبر الباردة وأنا أصعّد بصري إلى الشرفة العريضة المطلة على الكورنيش. أغلقت بهدوء باب السيارة ومشيت إلى المدخل حيث باب المصعد.. لم أخطر أحدًا بعودتي. أردت أن يكون حضوري مفاجأة لأرى الأثر البادي على وجهها وسلوكها..

كانت الساعة تدنو من الواحدة والمصعد يصعد بي إلى الخامس.. غادرته واتجهت إلى باب الشقة يتوسطه اسم "الدكتور رشيد الكاشف" أستاذ الجراحة بطب الإسكندرية، أدرت المفتاح في الكالون مرتين.. انفتح الباب على الصالة التي يملأ مساحتها الواسعة الضوء الخافت الذي تفضله هند. نهض أكرم وعزيز من كنبة الأنتريه واندفعا بدهشة نحوي. احتضنتهما بشوق مفرط.. ومضيت بهما إلى الكنبة وجلست بينهما. توقعت أن تكون هند

نائمة. لكن أكرم أخبرني أن (ماما) خرجت الساعة التاسعة ولم تعد حتى الآن، ولم تتصل، حاولنا أن نكلمها في تليفونها المحمول فلم ترد، فهو مغلق أو خارج نطاق الخدمة.. وقال عزيز:

- أنا قلق عليها جداً يا بابا.

- أخبرتكما أين ذهبت؟

فقال أكرم بحزن:

- سألتها، بأنها فى اجتماع مهم "بالمركز.." بمناسبة حضور رئيسه الأعلى إلى مصر.

- هل اتصلت؟

- لا.

اقترحت عليهما الذهاب إلى حجرة نومهما بعد أن أخبراني أنهما تناولا طعام العشاء، فامتثلا ومشيا إلى الحجرة باطمئنان؛ فقد حضر (بابا) وعليه أن يحمل عنا عبء انتظار (ماما).. اتجهت بدوري إلى غرفة النوم لأجري الاتصال بها من التليفون الأرضي

أو التليفون المحمول، لكن سرعان ما تراجعت رغبتي في الاتصال بها؛ فقد شعرت بنفور شديد منها جعلني لا أعني بالسؤال عنها.. استبدلت ملابسي وجلست على حافة السرير مديراً ظهري إلى المكان الذي تشغله عند النوم. كرهت النظر إليه. وضعت رأسي بين يدي ليأخذني تفكير عميق في "المركز" الذي صار مشبوهاً. كم صدَّعتْني هند بالحقوق الضائعة في وطني، وقد حان الوقت لاستعادة الحقوق من أنياب الأسد.. وكم وصفتني بالسلبية حين وجدتني لا أستجيب لما تقول وتروّج له..

فتحت عيني ورفعت رأسي على صوت حركة خفيفة ورائي في الجانب الآخر من السرير.. رأيتها نائمة على جانبها الأيسر بملابس النوم الوردية.. نظرت إلى ظهرها العاري وتساءلت: كيف دخلت؟ متى جاءت؟ لماذا لم أشعر بها؟ أكنت مستغرقاً في تفكيري فلم أشعر بدخولها وتبديل ملابسها ونومها في الفراش دون كلام بملابس النوم الوردية؟!.

نهضت من مكاني وتأملت ودققت وتعجبت.. ناديتها مرة ومرة ومرة فتحولت بجسدها وهي ممدودة تجاهي، نظرت في وجهها الذي غاب منه البياض وغلب عليه اللون الرمادي. حدقت في المحجرين، كانا بلا عينين، فأين العينان الخضراوان اللتان مازجهما اللون الأزرق؟!.. عاودني إحساس النفور الشديد فلم أتوقف عند تفاصيل جسدها المستلقي. رأيتني أرتكز على الفراش وأمدّ يدي لأنهضها، لكن يدي اصطدمت بموضع الفراش الخالي منها. أين ذهبت؟ وكيف دخلت؟ ولماذا لم أشعر بحركة النهوض والرحيل؟!

شعرت برغبة في الذهاب إلى غرفة مكتبي. مشيت إليها ودخلت.. تنقلت نظراتي بين محتوياتها، ومعلقات الحوائط الثلاثة، ثم هرعت إلى "الخزنة" الحديدية في فتحة الجدار السرية المغطاة "ببرواز" لوحة "بنات بحري للفنان السكندري محمود سعيد. أنزلته وأدرت الأرقام التي لا يعرفها سواي. انفتح الباب الصغير على المظروف الأصفر يحتوي على المخطوط المستهدف الذي

استأمنني عليه صفوان. تأملته ملياً ثم سارعت إلى إغلاق باب "الخزنة" وعلقت "البرواز" الكبير.. تراجعت عندما سمعت صوت قدمين تقتربان من باب الغرفة.. إنهما لهند.. جاءت أخيراً..

اندفعت نحوي بلهفة مصطنعة بينما اقتربت الساعة من الثانية. سارعت إلى القول بأن اجتماع المركز الذي رأسه مستر مانويل زخاري الروماني الأمريكي امتد حتى الثانية عشرة.. وازدحم الطريق بالسيارات بسبب مظاهرة "حركة كفاية"، ولولا تدخل الشرطة لما تدفقت السيارات. وقالت بصوت ناعم ممزوج بالدلال لم يزل إحساس النفور:

- لم تخبرني أنك ستحضر لأكون في استقبالك. وحشتنا. وحشتني جداً.

نظرت في عينيها مفتشاً عن الأخضر الممزوج بالأزرق الذي كم تباهيت به فلم أجد سوى اللون الرمادي.. فاجأتها بالسؤال:

- أكان في الاجتماع شوقي الجباسي؟

- نعم.. سافر إلى القاهرة بعد الاجتماع.

فكرت في الزمن الذي يمكن أن يستغرقه السفر إلى القاهرة، والوصول إلى منزله في جاردن سيتي. قدرته بحوالي ثلاث ساعات.. غادرت الغرفة عابراً الصالة، وضغطت رقم همس الجوهري وأنا متجه إلى الشرفة حتى لا تسمعني هند، سألتها إذا ما كان شوقي قد وصل إلى المنزل.. فقالت:

- كلمتي، وقال إنه سيبيت الليلة في فيلا المنتزة.

عدت إلى مكاني وتأملتها.. رأيتها متوردة، والروج غير باهت، والشعر الأصفر منسّق، وظهر الارتياح النفسي في قسمات الوجه الأبيض وإن شابته صفرة خفيفة. فقلت أفاجئها:

- أنت تآمرت عليّ.. آخر ما كنت أتصوره عنك أن تتآمري على زوجك. لم أسيء إليك أبداً.. هل تذكرين أنني أسأت إليك منذ زواجنا؟!.

فقالت وهي تتراجع إلى الحائط:

- ماذا تقول؟.. مذا تقصد؟.

- حرّضت شوقي على التخلص مني.

- غير صحيح.

- لا أعفيك وشوقي من إيذاء صفوان.

- أنت تتكلم عن شيء لا أعرفه.

- اختفى صفوان. ولكن سأوقع بكم جميعاً.

- أنت تتهمني.. أنت فقدت عقلك.

- استنسخت مفتاح صفوان. فدخلوا عليه الشقة.

لاحظت أنها ترمق حقيبة يدها بين الحين والآخر، فقدرت أن فيها شيئًا يخصني، أو يخص صفوان، توتّرت وتقدمت نحوها وقلبي مفعم بالغضب.. فأسرعت إلى باب الغرفة، وحين حاولت الاقتراب منها أخرجت من الحقيبة "مسدساً" شهرته في وجهي، فتسمرت في مكاني بينما هرولت قاطعة الصالة إلى باب الشقة.. أسرعت فرأيتها تفتحه وتغلقه خلفها بمفتاحها في لحظات خاطفة،

بينما سمعت صوت إغلاق باب المصعد وحركة "موتوره" دليل هبوطها به، فأسرعت إلى الشرفة لأراها تستقل سيارتها وتتجه بها إلى الشمال.. فعدت إلى الصالة لأرى في وسطها ولديّ أكرم وعزيز تعلو وجهيهما سيماء الفزع والرعب والأسف..

(١٦)

الآن تأكدت من تورّط الخائنة.. فعليك أن تبلغ الشرطة لتأخذ التحقيقات مجراها.. المباحث والنيابة بحاجة إلى معلومات جديدة تفيد في التحرّي، ولديك الآن معلومات تقودك ولا شك إلى الجناة.. رفْعها المسدس في وجهك دليل انتمائها إلى "منظمة" محلية أو دولية. واختفاؤها وسط معالم الإسكندرية يؤكد الشكوك والظنون. لم يكن تجنيد هند عشوائياً، بل خضع لتفكير وتدبير وتحرٍّ صامت درسوا به طبيعتك وحياتك العائلية، كما درسوا طبيعة هند الطموح القابلة للتحوّل..

قال صفوان مرة ومرة ومرات: "احذرها. ستنقلب هند عليك وعليّ في وقت ما. تذكر أنني عارضتك في الاقتران بها

لأن ثمة من همس في أنني بأنها طموح وسهلة التحوّل. حجبت طبيعتها عنك يا رشيد بجمالها الأخاذ ولباقتها المعهودة، فصممت على إتمام الزواج.. ومركز الشرق الأوسط يثير الشبهات؛ مجدي الصياد ابن شقيقتنا أكد لي أن المركز رهن المراقبة.. هل أظل محذراً ومعارضاً طول الوقت بعد أن أنجبت لنا أكرم وعزيز؟. ربما انخدعتُ في مظهرها المستقيم فنسيت "همسة الأذن المحذرة"، فعهدت إليك بأوراق لتحتفظ بها في مكان أمين، واستأمنتك على مسكني في الجيزة، فلن تستطيع هند إيذاء عم "أكرم وعزيز..".

سمعتني أقول: الآن يا أخي شهرت المسدس في وجهي، ورمت بكل شيء عرض الحائط. أي قوة وأي تورّط!، وأي مؤامرة!، وأي جبروت!.. لن أترك الخائنة دون عقاب، ولا يمكن أن أدع شوقي الجباسي يهنأ بعد الآن؛ اخترق سور عائلتي فجند زوجتي، وأفسد علينا الحياة، وشارك في إخفاء شقيقي صفوان.. فلأضبط الخائنين وهما في حالة تلبس..

ها أنا ذا الآن أهرع إلى حي المنتزة مع ظلام الرابعة. اقتربت من الفيلا ذات الطوابق الأربعة. يقطن شوقي في الرابع ويشغل الطوابق الثلاثة الأعوان والمساعدون. هيهات.. فلم أعد أعني بوجل أو ترهيب.. حييت رجلي "أمن الفيلا" اللذين يعرفاني، فقد زرتها من قبل مرتين. أخبرني أحد الرجلين أن شوقي بك غادر بصحبة امرأة ترتدي نظارة سوداء كبيرة، ورجلين.. شكرته ومضيت نحو سيارتي التي تحركت بها متجاوزا باب الفيلا. توالت على رأسي خواطر ثائرة: أين ذهبا؟!، أين ذهبوا؟!، لا مفر من العودة إلى جليم وإدامة النظر في الاحتمالات الواردة على الذهن المكدود..

ترددت برأسي أفكار وأصوات وصور وسيارتي تسير بطيئة بمحازاة الكورنيش: قلت في نفسي وأنا أستعرض الصور والأفكار والأصوات: لا بد من القصاص. اطمأن الجناة بعد اختطاف صفوان واغتيال كمال وهدان. يمرح الجناة الآن وربما تجمعهم لحظات أنس ما دام التدبير قد حقق ما أرادوه دون أن

يوقفهم أحد. وتوقَّعْ أن يتكرر الخطف والاغتيال لأنك يا وطني بغير نوافذ وبلا أبواب. أي كارثة حلّت وتحل بك يا وطني..؟!..

ابتعدت بسيارتي عن حيّز الفيلا الفاخرة بقلب مملوء بالوهم، وعقل يغوص في خواطر محرّضة تدفعني إلى "التفكير" في "قرار" لست راغباً في تنفيذه ولا تأييده الآن. كم يلح "القرار" على ذهني ويضغط على وعْيي فلا استجيب؛ لأنني أراني غير مؤهل للقيام بإجراءاته الآن على الأقل. يكفيني أن جهات التحقيق تؤدي دورها، وهي على وشك الكشف عن غموض الحادث كما قيل لي، فلم التفكير في تنفيذ "قراري" الآن؟.. خاصة أنني واثق من إخلاص رئيس النيابة ماهر الغمراوي في تحرير أخي والوصول إلى الجناة..

عبرت سيارة سوداء في الجانب الآخر، لمحت فيها بجوار السائق شوقي الجباسي، ويجلس في الخلف هند وبجوارها رجلان بدا أنهما مخصصان للحماية.. فكرت في المضي إلى منزلي

بجليم، لكنني سرعان ما اتخذت قراراً بالملاحقة، فانحرفت شمالاً لأدخل في أول "انحناءة" في الطريق، وحرصت على ألا تغيب عني السيارة التي لم تكن مسرعة. خفق قلبي خفقات سريعة. فقلت: الظاهر أنني سأواصل "التحري" الذي بدأته الليلة ولا أدري إلى أين سيقودني؟..

توقفت السيارة أمام الفيلا بعد أن انحرفت شمالاً فاندفع منها الأربعة إلى المدخل بسرعة خاطفة، بينما أوقفت سيارتي على الجانب الأيمن الذي أتاح لي مشاهدة المدخل والأربعة وهم يهرعون إلى الداخل.. تأملت الطابق الرابع الذي ما لبث أن تمت إنارته. تابعت الضوء البادي من زجاج النوافذ والشرفات رغم الستائر المنسدلة..

فكرت في أن الفيلا تقع في حيز قصر "المنتزة" الذي يقطنه – أحياناً – رئيس الجمهورية، ويستقبل فيه الملوك والرؤساء. اختار شوقي السكنى هنا بهدف إبعاد الشبهات عنه.. فمن يمكنه أن يتعرض لرئيس معارف مركز الشرق الأوسط الذي يجمع بين الجنسية المصرية والأمريكية.. شوقي يدبّر ويظن أنه يحسن

التدبير ويجيده. أنا لك بالمرصاد. سوف أوقع بك يا شوقي وبكم جميعاً.

استمعت إلى أذان الفجر من مسجد قريب فهدأت مشاعري بعض الوقت.. ترجلت من السيارة وقصدت المسجد وأديت الصلاة بقلب حظي بالاطمئنان.. خرجت من المسجد وقصدت سيارتي بينما شعرت ببرد الصباح المنعش.. الذي بدأت تباشيره.. احتواني المقعد فأحسست بوهن جسدي وغالبني نعاس..

رأيتني أغادر السيارة وأعبر الطريق إلى الفيلا. مضيت إلى بابها متجاوزا رجلي الأمن اللذين بدا أنهما لم يرياني بسبب نعاس، أو رأياني ولم يسألا لأنهما يعرفاني. صعدت السلم بدلاً من المصعد. في غمضة عين رأيتني أمام الباب.. دفعت الباب فانخلعت الكوالين والمفصلات. أبصرت في الصالة رجلي الحماية يتوسطهما شوقي الجباسي، وبرزت هند من غرفة جانبية في كامل هيئتها. انقضضت على الجميع ضارباً الوجوه والرؤوس والبطون بلكمات قوية سريعة حملتها غضبي ونفوري.. ثم رأيت الثلاثة

يستجمعون أنفسهم ويندفعون نحوي، ويتجمعون حولي ومعهم هند في شكل دائرة.. امتدت الأيدي ويدا هند.. رفعوني وحملوني ومشوا بي إلى الشرفة البحرية.. وتشبثت بهم عندما أدلّت جسدي ستة أيد ومعها يدا هند الجارحي، أي حقد!, وأي كراهية!..

ظلت الأيدي الثمانية تدفع وتدفع حتى تهاويت من الرابع، لكنني لم أرتطم بالأرض. رأيت جسمي يسقط فوق مربع اسفنجي عائم وسط جزيرة صغيرة لم أشاهدها من قبل، بينما غاص في الماء وجه شقيقي صفوان الذي ارتفعت في الفضاء قبضته في حركة تحثني على الاستمرار..

انتبهت على صوت فرملة سيارة مسرعة خلفي تفادت عجوزاً يعبر الطريق إلى الجانب الآخر. تيقظت حواسي وفتحت عيني وتأملت حلمي. نظرت في الطابق الرابع الذي انطفأت أنواره.. غادرت السيارة عابراً الطريق، قبل أن أصل إلى السيارة الواقفة أمام مدخل الفيلا رأيتها تنطلق بسرعة الصاروخ وهي تحمل الأربعة.. وقفت لحظات وأنا أشاهدها تغيب عن بصري.. حدست بأن خطرًا يدبّر لإيذائي وإيذاء نبيل جريس وهمس

الجوهري؛ لأنني عدت إلى تأمل حلمي: كيف يمكن الصمت وهم يدبرون دائما، يدبرون في الظلام والضوء.. لك الله يا وطني؟!..

(١٧)

عدت إلى مسكني مع شروق الشمس. فتحت فرأيت ولديّ أكرم وعزيز جالسين في حزن وحيرة. نهضا وتقدما مني فأشرت عليهما بالذهاب إلى غرفة النوم؛ فأنا سأنفرد بنفسي في المكتب بعض الوقت. استجابا ومضيا صامتين إلى الغرفة..

فكرت في ابن شقيقتي الضابط مجدي. اتصلت بتليفونه المحمول وأخبرته بما حدث، وأطلعته على ما جرى قبل فجر اليوم، فقال إن التحريات متصلة، وسوف يصدر قرار قريب، لاسيما أن ثمة ثلاثة رجال في زيّ "ضفادع بشرية" خرجوا من مياه غير بعيدة عن المنتزة، رصدتهم أجهزة البحث وهم ينزلون من قارب تحت ستار الظلام ليسبحوا نحو الشاطئ. استقبلهم ثلاثة موظفين بمركز الشرق الأوسط، وانطلقوا بهم إلى فيلا شوقي الجباسي قبل فجر اليوم.. أخبرنا بالواقعة أحد الثلاثة، فهو عين جهاز الأمن على المركز.. وأضاف مجدي:

- اطمئن يا خالي.. سنصل إلى الجناة قريباً.

هاهم يدخلون البلاد ويخرجون خفية، بطرق الجو، والبحر، والبر. كيف يحدث هذا الاختراق دون مراجعة حاسمة؟! إلام تنتظر عليهم جهات البحث والتحقيق؟! أرى الإجراءات تسير بطيئة كسلحفاة، فمتى تدبّ في أوصالها وثبات القلق المنتصر لأمن الوطن؟!..

أجريت مكالمة لرئيس النيابة ماهر الغمراوي، أخبرته بأمر هند الجارحي وشوقي الجباسي. فردّ بأن الواقعة خطيرة، وأنه بصدد الاتصال بالإسكندرية لتأمين منزلك وتوفير الحماية لك ولولديك، ثم قال:

- حان الوقت لتوجيه ضربة إجهاض.

- أرجو ألا تتأخر الضربة.

- اطمئن.. وعليك أن تأخذ حذرك.

أسفت وارتعت لأن أم ولدي داخل "المنظمة" التي سوف توجه إليها "الضربة" عاجلاً أو آجلاً. كيف هان عليها الولدان؟، هل سيغفران لها بسهولة حينما يعلمان بالخبر الذي سوف تتناقله الصحف ووكالات الأنباء والتلفزيون وفضائيات العالم؟. ماذا يفعلان أمام الزملاء والجيران؟. ألم تفكر هند الجارحي في مصير أكرم وعزيز بعد إدانة أمهما الخائنة؟! ما الذي جعلك عمياء إلى هذه الدرجة فلم تفكري في المصير المنتظر لهما؟! أي قوة ملكتك واستحوذت عليك فأنستك الولدين؟ هل هي قوة المال؟، أم قوة العشق؟ أم قوة الكراهية لي؟ أم قوة المقْت لوطن تظاهرت بحبه وانتمائك له أمام القاصي والداني؟! كيف تفرطين يا هند هكذا؟ ماذا قدم لك شوقي الشيطان حتى تغوصي في مستنقع الخيانة؟ أنت الآن موغلة في الخطأ والخطيئة وعريقة في الإجرام..

حدثت نفسي بأنني سوف أغادر الإسكندرية في أي وقت إلى الجيزة ولابد من أن يكون إلى جوار الولدين من أثق به، فاتصلت بشقيقتي بثنية المقيمة بطنطا.. رحبت على الفور، وقالت:

– سأحضر مع مجدي عصر اليوم فلا تقلق.

شعرت ببعض الاطمئنان، فالتفت إلى "البرواز" الحاجب "للخزنة" الحديدية. أنزلته وفتحتها، وسحبت المظروف الأصفر. فضضته عن المخطوط وطالعت عنوانه: "دعوة إلى النظر"..

رأيت بعد الغلاف ورقة تخصني. قرأت: "شقيقي العزيز الدكتور رشيد الكاشف" أعهد إليك بهذه الأوراق.. لا تطلع عليها أحداً، وعلى الأخص زوجتك هند.. احرص عليها، وحبذا لو أبعدت المخطوط عن منزلك "..

في الصفحة الأولى قرأت: كم شكوت إلى مدير الأمن العام، والوزير، لأن البلاد مستباحة بعملاء منذ التوقيع على اتفاقية "كامب ديفيد"، يعبثون في أنحاء البلاد ويدبرون بليل دون رادع. وثمة محاولات لزعزعة أمن البلاد في مدن المحافظات.، ومؤامرات بثّ الفتنة الطائفية.. وتحدثت إلى وزارة الخارجية وبعض رجال المخابرات بشأن قيام بعض العملاء بتنظيم "مظاهرات" في أمريكا وفرنسا وبريطانيا مناوئة للدولة للمطالبة

بإنشاء دولة مسيحية في الجيزة والصعيد، وإثارة القلاقل في سيناء في محاولة لعزلها في دولة مستقلة.. ها هي حال القوى التي تدبّر ولا تتوقف عن التدبير. يحرّكون عملاء يعيشون بيننا، ويجندون منا، وعملاء يفدون في إطار سياحي.. يتسترون به في الظاهر ولديهم دائماً خطط وتعليمات.. وثمة أصوات رسمية هنا تطالب بالمهادنة دون تفكير في إنشاء باب يحمي الوطن ممن يعملون تحت جنح الظلام.. لا يتوقع أحد أن أسكت لساني وأقصف قلمي. كيف ينتظر عاقل من كاتب محب لوطنه أن يكف عن مناوأة التآمر بالكلمة العاقلة والمقنعة والمحذرة؟.

وقرأت في صفحة أخرى:

"لديك وثائق مع المظروف تدين وتفضح العملاء والمدبرين أمام شعبنا وشعوبهم، وخرائط لأعالي النيل تهدف إلى خنق الوطن.. كم أرسلت إلى الجهات العليا رسائل توضح أنهم استهدفونا بالتآمر في دول أعالي النيل لتقليل حصتنا المائية المستحقة المؤيدة بالاتفاقيات الدولية منذ عشرات السنين..

تركت وثائق وخرائط وتقارير خبراء عند همس الجوهري ونبيل جريس. لا يتصور شوقي الجباسي وأعوانه أن زوجته يمكن أن تخفي مثل هذه الأوراق في مسكنه. رغبت دائماً في أن تأخذها وتبعدها عن مسكنها إذا حدث مكروه. الآن عليك أن تجمعها مع وثائق وخرائط وتقارير لدى الدكتور نبيل. قدّمها إلى النائب العام. أوصيك بهمس. وكن قريباً من نبيل جريس، واحذر الأيادي الخنجرية المباغتة. سوف يحاولون السطو على ما في حوزتك، أو النيل منك لإسكاتك، أو الضغط عليك بأكرم وعزيز، وتذكر دائماً أن انتماء هند أولاً وأخيراً للمركز، ولا تعجب إذا فرطتْ فيكم. لديّ معلومات عن استغراقها في التدبير والتآمر..".

وفي صفحة تالية قرأت: "أمكن لي أن أعرف حقيقة شوقي الجباسي. فهو رجل أعمال ناجح.. يرأس "مركز معارف الشرق الأوسط لحقوق الإنسان"، وبحكم جمعه للجنسيتين المصرية والأمريكية، يعقد صفقات خاصة بالبناء والسلاح، ويسافر دائمًا إلى أمريكا وأوربا. يدعمونه بالمال والنفوذ. يحرصون عليه؛ فهو رجلهم القوي في المنطقة، وزار إسرائيل علانية وسرّاً عدة مرات

وله فيها ارتباطات. ويعرف بعض المسئولين في الدولة علاقته برجال أعمال في إسرائيل. شوقي رجلهم القوي في وطننا. يفتح الأبواب المغلقة والناس نيام، ويفتحها وهم يقظون حين يحتفلون بمناسبات الأعياد الدينية والوطنية، وأثناء اتجاه الأنظار إلى مباريات "المنتخب القومي" لكرة القدم!. تمكن شوقي للأسف من تجنيد هند الجارحي، ولست بحاجة إلى أدلة كثيرة لإدانتها، مهما حاولت التظاهر بالبراءة سوف تكتشف خيانتها عن قريب.. ".

وفي صفحة أخرى قرأت: "كلف شوقي الجباسي بإشعال نار الفتنة في الداخل والخارج، ولولا مقالاتي في (الواشنطن بوست) و (لوموند) و (برافدا) و (الجارديان)، لبدت مصر دولة موشكة على التفكك والانهيار.. وساعد على تأييد الرأي العام لوجهة نظري في ضرورة إطفاء نار الفتنة، أن الفضائيات الأوربية والأمريكية قد أذاعت فقرات من مقالاتي، وكذلك فعلت إذاعات "صوت أمريكا، والـ "بي بي سي"، و "مونت كارلو"، فضلاً عن الصحف العالمية المختلفة. لهم عملاء في المدن والقرى.. وينساق بعض الشباب العاطل وراء الشعارات البراقة،

والمشروعات الوهمية فيسهل تجنيدهم وتوجيههم. أنت يا أخي تعلم أنني تعرضت للمضايقة والتهديد هنا وهناك، ولكن لن أتوقف.. لن أقصف قلمي حتى لو هددوا بقصف عمري؛ ورثنا عن والدنا الراحل "عناد الثيران" فلا يمكن التوقف والتراجع"..

وفي صفحة أخرى قرأت: "الدكتور نبيل جريس وطني مصري محترم- جمعنا الموطن الواحد. فنحن من مدينة طنطا، وتزاملنا في مدرسة واحدة هي طنطا الثانوية، وتخرجنا في كلية واحدة. هي كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، وتوزعنا على سلاح المشاة من منطقة تجنيد واحدة عام ٦٨.. وخضنا معاً حرب الاستنزاف وحرب ٧٣. جمعتنا هموم وطننا عقب الحرب وبعد اتفاقية السلام الشهيرة أثناء بعثته للحصول على الدكتوراه من (السوربون) بفرنسا في موضوع (الصراع العربي الإسرائيلي)، وقتها كنت مسئولاً عن مكتب الجريدة في مدينة كمبردج، وأحرر مقالات أرسلها بالعربية إلى مصر، ومقالات أنشرها في الصحف الأمريكية عن "الجوانب الإيجابية والسلبية" في اتفاقية كامب ديفيد.. كانت دراسته لموضوع الدكتوراه محور نقاش طويل كلما

التقينا في باريس أو مصر. اتفاقنا في الآراء أكثر من اختلافنا. نبيل جريس عقل منظم، يستطيع أن يمدك بمعلومات عن "الأنشطة المعادية" لوطننا ذكرتها في مخطوط بحوزته. قابلْه ونسّقْ معه لنشره في حال إزاحتي أو اغتيالي"..

وفي صفحة أخرى قرأت: مهندس معماري أشرف الساعي: وطني شريف، وجسور، تعرفت عليه يوم التحاقي بوحدة عسكرية رابطت بقرب الشاطئ الغربي للقناة.. وكانت تستفزنا الدوريات الإسرائيلية، وهي تتحرك على الشاطئ الشرقي في النهار، وفي الليل.. وشاركني حلمي في وقْف نشاط هذه الدوريات. عبرنا مع قوة حددتها القيادة ودمرنا دورية، ثم عدنا سالمين.. ومرة أصيب برصاصة في ظهره بعد نجاحنا في تدمير موقع دأب على إطلاق نيرانه على المواقع الأمامية.. فعدت به سباحة أنا ونبيل. قابلْ أشرف الساعي وتحدث معه"..

مرة أخرى طالعت عنوان المخطوط، وقلبت صفحاته التي يجاهر صفوان فيها- بالدليل - بالدعوة إلى التصدي للتآمر على

الوطن.. ثم أعدته إلى المظروف وأنا أشعر بشوق عارم إلى لقاء الدكتور نبيل.. كم كان صفوان يستشيره ويطمئن إلى صحبته. وكم جمعتهما مواقف شديدة الصعوبة وشدّ فيها كل منهما من أزر الآخر.. وأنكر رواية حكاها لي صفوان لا تغيب عن ذهني؛ فقد قال لي صفوان وهو يؤكد على اتفاقهما في حب الوطن وحمايته: "لا أنسى يوم انتفاضة ١٨، ١٩ يناير ١٩٧٧، التي سماها السادات" انتفاضة الحرامية"، فقد افتداني ليتلقى عني ضربة عصا هوى بها شرطي أمن مركزي فكسرت ذراعه وسقط على الأرض أثناء اشتراكنا في مظاهرة ميدان التحرير.. وتحامل رغم الإصابة حتى توارينا خلف المجمّع. يومها احتضنته بذراعيّ، وشعرت بشدة قربه مني ومدى حبي له..

يوم أفضى لي بأنه غارق في حب "همس الجوهري" الصحفية الشابة المتدرّبة في "الشهاب".. استمع إلى نصيحتي بأنها "متعلقة" برشيد منذ أن حضرتْ معنا حفل زفافك بالإسكندرية.. فاستجاب في صمت، ولم تتغير علاقته بها، وكان قد حزن أشد

الحزن عندما فاز بها مَنْ لم نكن جميعاً نتوقعه وهو "شوقي الجباسي" الذي بدا لنا أنها وافقت عليه حرصاً على عدم إغضاب والدتها؛ فهو ابن خالتها الكبرى ومراعاة لموافقة والدها عليه، لاسيما أن الرجل كان يصعد في دنيا المال والأعمال بسرعة الصاروخ. احترمت حبه لها وصمته وإخفاءه لمعاناته وهو يراها في قبضة مَنْ لا يستحقها.. وها هي السنوات قد مرت دون أن يفكر في الزواج. لاسيما أنه حصر ذهنه واهتمامه في حياته العلمية وتأليفه في الشئون السياسية، وترقيه إلى أستاذ مساعد، ثم إلى أستاذ، فضلاً عن انتداباته وزياراته إلى جامعات عربية وأجنبية، ومشاركاته في المؤتمرات العالمية..

ومرة أشرت عليه بالاقتران بمدرسة شابة بالكلية، تعد بحوثها تحت إشرافه وتوجيهاته، لأنني متأكد من "تعلقها" به. قلت:

- لم لا ترتبط بزوجة؟. أنا أميل إلى أن تقترن بالدكتورة "نادية" أشعر أنها تحبك.

فبادر قائلا:

- وأنت لم لا ترتبط بزوجة؟، نادية تلميذتي ولم أفكر في الارتباط بها أو بسواها. أنت تعرف أكثر من غيرك أنني لست مهتما الآن بالزواج. فتبادلنا نظرات ذات معنى. اتجهت إلى همس الجوهري التي شاء حظها أن تقع في قبضة شوقي الجباسي"..

شعرت بثقل رأسي.. فغادرت مقعد المكتب، وقصدت كنبة الشازلونج بجواره. تمددت فيها بعد أن أطفأت النور.. هاجمني نعاس فرأيتني أكلم صفوان ويكلمني، وأبصرت "همس الجوهري" ضيقة الصدر تتحاشى لقاء شوقي وهي تنظر في حسرة إلى ولديها اليافعين عدلي وكريم، ورأيتها تغادر مسكنها يعلو قسمات وجهها كآبة عميقة، وسمعتها في الحلم تحدثني بأن اللحظة قد حانت للمجاهرة بالرأي، ولم لا تعقد مؤتمرات لكشف دوافع اختفاء "صفوان الكاشف"؟ وعاودتني في حلمي "رصاصة حلم نيويورك" التي أرْدتها بعد أن أرْدت صفوان رصاصة مماثلة.. ورأيتني أجري أمام قاطرة تجر عشرات العربات في نفق ضيق ومظلم، لا يتسع إلا لعبور قطار واحد فأدركت أنني هالك لا محالة، ورأيت –

فجأة – ذراعي قد نبت فيهما جناحان ارتفعا بي فوق سطح القطار الكاسر، بينما تعلقت عيناي برصاصتي نيويورك القاتلتين..

استيقظت في السابعة وقد اخترق شعاع الشمس زجاج النافذة وستارتها الزرقاء الشفافة، نهضت من الشازلونج متألماً من وجع ظهري، مشيت إلى غرفة ولديّ أكرم وعزيز.. رأيتهما يتأهبان للذهاب إلى مدرستهما التي لا تبعد كثيراً عن المنزل.. ودعتهما بعد أن اطمأننت على أنهما تناولا الإفطار وشربا العصير.. ثم عدت إلى مكتبي وتمددت مرة أخرى على الشازلونج ليأخذني مرة أخرى نوم عميق..

رن جرس الباب في الرابعة عصراً. صحوت على الرنين.. غادرت الغرفة لأرى شقيقتي بثنية وابنها الضابط مجدي.. فتح لهما الباب أكرم الذي عاد من المدرسة بصحبة عزيز منذ ساعة.. استقبلتهما وانفردنا بعيداً عن الولدين.. رويت لهما ما حدث بصوت واهن حزين.. وطلبت من بثنية أن ترعى الولدين في غيابي، لأنني سأسافر في الصباح إلى الجيزة. وقالت بثنية:

- لا تقلق هما في عيني.

وعقب مجدي:

- سأكون دائماً في الجوار فأنا في "مأمورية" بمباحث أمن الدولة بالإسكندرية.

ساورني إحساس الاطمئنان على أكرم وعزيز، فتحدثت إليهما وتحدثا إليّ، وغلب على أحاديثنا غياب شقيقنا صفوان الذي لم يظهر عنه شيء حتى الآن. وكظمت بثنية غيظها، وحجمت غضبها، وآثرت أن تتحكم في انفعالها حتى لا تزيد من حزني، بل إنها طالعتني بوجه مطمئن قصدت به التخفيف عني.. رغم الهلع الذي أشعر به يملأ صدرها وعقلها..

في المساء توجهت إلى عيادتي بعد أن عرفت الطبيب جمال زكي بخبر حضوري. وهو أحد تلاميذي الذين تخرجوا على يديّ ويشهد له الجميع بمهارته، وكنت قد كلفته بإدارة العيادة في غيابي.. وضحت له أنني الليلة فقط في العيادة لأنني سأسافر

صباح غد.. وبقى إلى جواري يفحص بعض المرضى – حتى العاشرة مساء – لأتجه بعدها إلى منزلي في جليم.. جهزت حقيبة السفر ووضعت فيها ما أحتاجه قبل أن أخلد إلى النوم. في الحادية عشرة سطع في ذهني اقتراح الدكتور نبيل بأن أستأجر في الجيزة مسكناً مؤقتاً قريباً من جهات التحقيق، وثمة شقق مفروشة يمكن استئجار إحداها، فاتصلت به وأخبرته بموعد حضوري في العاشرة تقريبا صباح الغد، وحبذا لو جهز لي شقة تجاور شقة صفوان تطل على النيل..

(١٨)

أسلمتني محافظة أكتوبر إلى الجيزة في العاشرة. استقبلني نبيل أمام الشيراتون في العاشرة والنصف، أنهيت إجراءات الحجز، والصعود إلى الغرفة (٢٥) بالطابق العشرين. جلست بعض الوقت في الأنتريه مع نبيل.. تأملت.. لاحظت على وجهه أمارات الوجوم.. شملنا للحظات صمت ما لبث أن قطعه بقوله إنه

سيحضر معه غداً المخطوط الذي بحوزته، لأنه يشعر بملاحقة في الجامعة وفي الطريق، وأمام مسكنه.. وأضاف يقول:

- أجد دائماً شخصاً في المصعد يتغير كل يوم. أشعر أنني مراقب.

- منذ متى؟

- من أول أمس.

- أبلغت الشرطة؟.

- بماذا أبلغ؟، لم يتعرض لي أحد حتى الآن. فقط أراني تحت المراقبة.

- عرفت همس؟

- أخبرتها لتأخذ حذرها.

سكت برهة وقال:

- يريدون ما عندنا، وإرهابنا لإسكاتنا. أوراق صفوان خطر عليهم، مثل مخطوط كمال وهدان الذي نجحوا في اغتياله أثناء نومه.

- والمخطوط؟

- اختفى.. أفادت شقيقته عند استدعائها، أنها كانت في زيارته بشقته مساء أمس، وكان يراجع مخطوط كتاب تحفظ عنوانه "القطب الأوحد وتسهيل التطهير العرقي"، وصرحت بأن المخطوط المختفي وراء اغتياله..

سكت قليلاً ثم قال:

- حجزت لك شقة، وإن كنت أفضل لك الفندق.

- بالعكس. في الشقة أكون أكثر حرية.

قلت في نفسي: حانت اللحظة لبدء تنفيذ قرارك الذي فكرت فيه وعزمت عليه.. وتساءلت:

- الشقة جاهزة؟ متى أشغلها؟

- يمكن أن تشغلها , من الحادية عاشرة صباح الغد.

- أين تقع؟

- تطل على النيل.. في الطابق الرابع من عمارة الأندلس، فوقه ستة طوابق، وبمدخل العمارة مكتب أمن، ولها بوابان نوبيان، وقريبة من شقة صفوان..

- عرفت همس؟

- أشركتها في الاختيار، وكانت بصحبتي عند الاتفاق.

(١٩)

في الحادية عشرة صباحاً استلمت مفتاح الشقة، وتجولت في صالتها وغرفها الثلاث، وتقدمت من الشرفة المطلة على النيل، وأمكنني أن أحدد شرفة شقة صفوان.. بيني وبينها خمس عمارات.. استرحت لاختيار همس ونبيل.. وقلت:

- أرى تغيير كالون الباب.

- طبعاً.. هذا ما قلته للمالك.

غادرنا الشقة والعمارة وقصدنا محل "كالون ومفتاح" بشارع التحرير.. اخترت بنفسي الكالون الآمن.. وأرسل صاحب

المحل معنا شاباً للقيام بإجراءات التغيير التي لم تستغرق سوى نصف ساعة، أغلقت الباب وسلمت نسخة مفتاح للدكتور نبيل جريس.. وقال لي ونحن نشرب شاياً أعّده بنفسه:

- الآن يمكن أن أسلمك مخطوط صفوان حسب توصيته.

أخرج من حقيبة أوراقه "المظروف" المحتوي عليه.. فتسلمته منه، وتحدثنا قليلاً، ثم استأذن، فلديه محاضرة بالكلية بعد ساعة، فورد على ذهني الاعتذار الذي أرسلته مع تلميذي الدكتور جمال زكي أمس ليسلمه إلى عميد الكلية راغباً فيه إجازتي لمدة أسبوع..

انفردت بالمخطوط بعد خروج نبيل.. طالعني عنوانه المثير لكوامن غضبي: "الدولة العبرية وطمس الهوية الفلسطينية"، تحدث معي أثناء كتابته عن المحاولات المستفزة لإزاحة "الوجود الفلسطيني" وطرده، والاستعانة بسياسة القطب الأوحد لتكميم أفواه المعترضين أو تصفيتهم..

رأيت مع المظروف أوراقاً تخصني: إلى الدكتور رشيد الكاشف: قرأت في الورقة الأولى تحذيره لي، وضرورة مراعاتي الوقت المناسب للمجاهرة بالرأي. قال: "الموج عال جداً يا رشيد، تجنب المواجهة العلنية فقوته عاتية ومهلكة.. لو صممت على "المجاهرة" لن يتركوك لشأنك، ولو تعرضتُ للإيذاء أو الاختفاء، أو الهلاك، عليك أن تتوقف عن المجاهرة والجأ في صمت إلى البحث والتقصّي، لابد أنهم قد عرفوا عنك الجسارة والتصميم، وعندما يضيق بك الحال قابلْ المهندس أشرف الساعي، وسوف يساندك..، واحذر شوقي الجباسي، عرفت أنه أخذ على عاتقه – بتوصية مخابرات معادية – إيذائي، وإهلاكي، وهو يعلم أنك قريب من قلب همس. وسبق له – كما ذكرتْ لي مرة – أن صارحها بارتباطكما العاطفي، ورغم أنها نفت لأن معرفتي بالدكتور رشيد مجرد تلاق فكري، فإنه لم يقتنع، وقالت إنه يضمر شيئًا لرشيد. وأنا أنقل لك نص الحوار الذي روته لي همس وحفظته ذاكرتي، ودونته في مفكرة صغيرة وهي ترويه. "قال شوقي:

– أنا متأكد أنك متعلقة به.

- ما بيننا مجرد صداقة جمعتنا على هدف واحد هو "حماية الوطن"، أنسيت أنه شقيق صفوان أستاذي ومعلمي؟

- أرى أن تقطعي صلتك به.

- لو فعلت لأدنت نفسي أمامك.

- مصادري عديدة، وتؤكد أنكما متفاهمان.

- لا أنكر "التفاهم" على حماية الوطن.. هل هذه تهمة أحاسب عليها؟

- هو طبيب أكاديمي وأنت صحفية.

- إذا عرفته ستغير رأيك.. هو إنسان مستقر في حياته، وعمله. وهو زوج وأب لولدين في عمر عدلي وكريم. وزوجته هند الجارحي مثقفة ومهتمة بحقوق الإنسان.

وقال شوقي بعد صمت قصير:

- أريد التعرف عليهما.. حدّدي موعداً لزيارتهما."

الحق يا رشيد أنني شجعت على الزيارة والالتقاء بك لأخفف الضغط الواقع على همس. وقد حضرت ومعي الدكتور نبيل مأدبة العشاء التي أقمتها، ولاحظت – كما لاحظ نبيل – أنه ركز اهتمامه على هند، وتذكر طبعاً أنه قال بعد تناول العشاء، وأثناء شرب الشاي:

– نحن في مركز معارف الشرق الأوسط لحقوق الإنسان نحتاج إلى اهتمام وتفكير السيدة "هند" هل أجد موافقة؟ ولما بادرت هند بالاستجابة استحسنت ترويك وردّك الهادئ بالموافقة، وتفهمت رغبتك التي تهدف إلى إشغالها في عمل يخفف من ملاحقتها لك وتنصتها عليك..

لم أفاجأ باستجابتها السريعة لاقتراح شوقي فأنا أخبر منك بشخصيتها، لأنها سرعان ما اندمجت في المركز ووصلت إلى منصب نائب المدير العام. ولم أفاجأ أيضاً بعد مرور عام أن المركز تحت المراقبة؛ أخبرني بذلك مجدي الصياد ابن شقيقتنا بثنية، وأن عملاء يلتقون بهند الجارحي في مكتبها بالمركز

وخارجه، فنبهتك منذ أيام بأنها خطر علينا.. هاهي الآن تعمل في اتجاه "شوقي الجباسي".. إنه عميل كبير يتخفى في ثياب رجل أعمال واسع النشاط، متعدد الخدمات، متنوع الرؤى، له صلات واسعة مدعومة بالمال النفوذ"..

وفي صفحة ثانية قرأت عن شخصية الدكتور نبيل جريس "وطني كبير، مصريته فوق أي اعتبار، مبدأه الدين لله والوطن للجميع، والده "جريس اسطفانوس" ممن شاركوا في ثورة ١٩، وله نشاط سابق ملموس في حزب الوفد. وكان صديقاً مقرّباً لمصطفى النحاس ومكرم عبيد وأحمد لطفي السيد. فشلت المخابرات المعادية في "تجنيد نبيل" أثناء بعثته إلى فرنسا، وبعد عودته منها حاملا درجة دكتوراه الدولة من السوربون.. إنه الآن مفكر كبير، صاحب موقف ورؤية.. كتبه بالفرنسية والإنجليزية عن "أحلام الصهيونية" تثير جهات في الغرب ومصر. لكنه لا يبالي ما دام ثمة شرفاء في أماكن كثيرة من العالم تؤيد فكره وآراءه.. تعهّد لي بحماية همس الجوهري حين أبديت له خوفي عليها من مجاهرتها

بالرأي في مقالاتها النارية.. يحميها بتفانٍ رغم تأكده بأنها تحبك ولم تسلم قلبها لأحد إلا لك.. إنه يحبها وفضل دائماً أن تجهل حقيقة شعوره نحوها.. لن يخذلك نبيل عندما تلجأ إليه.."

وفي الصفحة الثالثة: تحدث عن يقظة عملاء المخابرات المعادية وقال: "إذا تحدثت مع مجدي الصياد ابن شقيقتنا احرص على أن تقابله خارج مكتبه.. العملاء منتشرون في كل مكان.. تذكر هذا دائماً..

أخبرني مجدي مرة أن: الهجوم المسلح على الوفد السياحي أمام فندق أوربا بالهرم – نفذه خطأ مناوئون؛ فقد رصدت عيونهم وفداً يضم جواسيس كان يقصد النزول في الفندق، لكن العملاء في اللحظات الأخيرة غيّروا مسيرته إلى فندق آخر، فنجا من الهجوم الدموي الذي راح ضحيته عشرات لم يكونوا في الأصل مستهدفين.. وترتب على ذلك أن جواسيس الوفد الناجي زاولوا مهامهم. التي جاءوا من أجلها وهي التجسس لصالح القوى المعادية لمسيرة الوطن.. كيف يمكن السكوت على خطورة

"السياحة التجسسية"؟! كيف يمكن قبول آراء خارج الوطن بأن وطننا مستباح لأنه بلا نوافذ ولا أبواب؟!"..

ظللت أعيد قراءة التحذيرات وأقلب في المخطوط وأدون منه ملاحظات مدة ساعة تقريباً حتى غلبني النوم في مقعدي، حلمت خلاله بأنني أقف بالقرب من منصة بالحديقة الشهيرة كأني أشارك الزعماء الثلاثة بيجن وكارتر والسادات في التوقع على الاتفاقية، ورأيتني أتأمل وجهي "بيجين والسادات" وهما يتصافحان ويرسمان ابتسامتين واسعتين، بينما علت وجه "كارتر" بسمة زهو واطمئنان وارتياح..

عندما استدار الثلاثة مغادرين منصة التوقيع – رأيت نصل خنجر يبرق بيد سوداء غليظة متحفزة.. ولاحظت أن لمعة النصل البرّاق لم تلفت نظر أحد.. فصحت وتعالى صياحي محذراً من الخطر المتحفز لكن لم يسمعني أحد، فتحركت في مساحة ضيقة هنا وهناك بالصياح الذي لا أملك غيره لأنني كنت مكبلاً بسلسلة ومربوطاً في عمود ضخم يشرف على منصة التوقيع، لكن لم

يسمعني أحد.. ورأيت النصل اللامع يطير في الهواء ويتجه إلى صدري، بينما كنت مكبلاً ومسلسلاً، بالقرب من المنصة، ولكن ما لبث أن هبط فوق المكان الدكتور نبيل جريس بصحبة همس الجوهري، وأسرعا نحوي وتلقيا النصل اللامع بصدريهما، فسقطا دون أن يُعتقل الجاني الذي لم يلتفت إليه أحد، فلم يشعر الحاضرون بمغادرته، بينما تعالى صوت تحذيري..

(٢٠)

استيقظت من نومي في الثانية عشرة على صوت "همس الجوهري" في تليفوني المحمول.. قلت لها بأنني طالعت "المخطوط" الذي كان في حوزة الدكتور نبيل، وقرأت أوراقاً كتبها صفوان لي، وأرى أن يكون "المخطوط" بين يدي النيابة للمساعدة في الكشف عن الجناة، فوافقت همس قائلة:

- ورأيي أن نعرض المخطوط الذي في حوزتي.

وحكيت لها الحلم الذي راودني منذ قليل.. وقلت لها:

- أنا متشائم للغاية.

فأخبرتني أنها أمس كانت في مكتب رئيس النيابة ماهر الغمراوي للمتابعة، فأفضى إليّ بأنه في طريقه إلى الكشف عن الجناة. وقالت:

- شعرت في حديثه بالأمل بعد أن مسّني اليأس.

فعقبت قائلاً:

- أنا ذاهب إلى مبنى النيابة لمقابلته بالمخطوط.

- سوف أكون هناك أنا الأخرى.

أنهيت المكالمة، وأجريت اتصالا بمكتبه فحولني السكرتير إلى وكيـــل النيابة الشاب مسعد نور الذي بيّن لي أننا بانتظار حضوره.

ولما قلت له إنني أرغب في مقابلته – أضاف:

- يمكنك أن تحضر لمقابلته في الواحدة. فهو يريد أن يراك ويرغب في التحدث إليك.

- سأحضر في الموعد المحدد.

نهضت من مكاني، وحملت المظروف في حقيبة أوراقي وغادرت الشقة هابطاً بالمصعد.. واتجهت إلى سيارتي المحازية للرصيف. فمضيت بها إلى مبنى النيابة بالدقي.

استقبلني وكيل النيابة الشاب الذي بدا عليه قلق لم أعرف سببه، وغادر الغرفة، فاندمجت في خواطري التي مازجها حلمي القريب.. فاستغرقتني الخواطر بعد مغادرة الشاب المكتب.. فرأيت وجه صفوان وسط ضباب كثيف تكسوه ملامح الغضب.. وسمعت في صوته تحذيراً بأنني يجب عليّ الحذر، وتوقي الخطر، فلست يا رشيد معصوماً من مؤامرة تحاك ضدك في الظلام؛ فأنت الآن بتحركك الأخير موضوع في بؤرة التهديد..

مضت ساعة وأنا أنتظر في مكتب وكيل النيابة الشاب، الذي نهض وخرج لأمر لا أعلمه. تساءلت بقلق: حدد رئيس النيابة الموعد وأعلم أن مواعيده دقيقة، فلماذا تأخر؟. أحسست أن لتأخره علاقة بموضوع اختفاء شقيقي.. ربما تعرض لمضايقة أو

إيذاء. لكن سرعان ما استبعدت إحساسي. فكيف يتعرض أحد لجهاز النيابة؟! وقبل أن أسترسل في خواطري دخل المكتب وكيل النيابة الشاب وجلس في مقعده صامتاً وهو يتأملني بعينين شاردتين، فتضاعف إحساسي بالقلق.. وقال يقطع خواطري القلقة:

- اتصلنا بماهر بك عدة مرات ولم يجب.

- ألا يوجد معه أحد؟

- لا.. فهو أعزب.

- ذهب أحد للاطمئنان عليه؟

- منذ ساعة توجه سكرتيره إلى مسكنه بشارع مصدق.

توثبت مشاعري، وتقافزت خواطري. واندلعت برأسي أسئلة. هل يمكن؟. أيحدث؟. هل يعقل؟.. أوقف الخواطر رنين جرس التليفون بعد مرور ساعتين، فرأيت يد وكيل النيابة الشاب تمتد إليه بلهفة وترفع السماعة.. مضت لحظات، ثم سمعته يصيح:

- غير معقول.. غير معقول. مستحيل.

وتهاوى في مقعده، فهرعت إليه رغبة في نفْي قلقي الذي أثار تساؤلاتي المتشائمة. قال بوجه أصفر وهو يضرب سطح المكتب بقبضة يمناه:

- كسرت الشرطة الشقة بعد أن أفاد الجيران بتسرب رائحة نفاذة منها. فوجدوه ممددا في سريره، والتقرير المبدئي أن سبب الوفاة اختناق بغاز متسرِّب من أنبوبة البوتاجاز.

دق قلبي دقات عنيفة موجعة، وأنا أغادر المكتب مع وكيل النيابة الشاب الذي أمسك بيدي قائلاً:

- كاد يصل إلى الجناة. أخبرني مساء أمس أنه اقترب من الوصول إلى سرّ اختفاء صفوان الكاشف، ولن يتراجع عن الإيقاع بهم.

قلت بيأس:

- هل انتهت قضية صفوان؟

فرد بصوت حزين مازجه التوعّد:

- سأواصل العمل في القضية. أوصاني ماهر بك بالمتابعة إذا حال بينه وبين المتابعة موت أو حادث.

سكت برهة وقال بأسى:

- كأنه كان يشعر بما حدث اليوم.

حدثت نفسي وأنا خارج من مبنى النيابة متجهاً إلى مسكني بأن الخطر أكبر مما يتصوره أحد. هاهم يواصلون التصفية بالاغتيال؛ اغتالوا كمال وهدان، ثم اختاروا رئيس النيابة لإظهار مدى قدرتهم على وقف أي متابعة لمختطف أو مغتال. كيف يسكت وطني على الاختطاف والاغتيال؟، هل يقبل مواطن أن يغض الطرف عن جريمة تنال - دون شك - من جسد الوطن؟. ولن تكون جريمة الخطف والاغتيال هي نهاية المطاف؛ ثمة من سيفحص ويدقق النظر للتوصل إلى هذه الأيدي الجهنمية التي تعربد في الظلام، وفي وضح النهار - لقطعها والتوصل إلى من يزرعها ويحركها ويأمرها بالعمل والتنفيذ..

وجدتني أفكر في همس ونبيل: قريبان من صفوان ويعرفان الكثير.. ولا شك أن أصحاب الأيدي الجهنمية يدبرون ويخططون. من يحمي صديقي؟. من يوقف الخطر الزاحف كثعبان إلى همس ونبيل؟، وفكرت في بواب العمارة، وأمين الشرطة، وزوجتي الهاربة، وشوقي الجباسي. انثالت على ذهني صورهم واستمعت إلى أصواتهم بينما برق "النصل" اللامع في اليد السوداء عقب "حفل التوقيع على الاتفاقية" الشهيرة..

تساءلت: كيف يمكن السكوت بعد الآن؟. أنغض البصر عما جري وعما يجري؟! هل نتوارى خلف الصمت ونكتفي بالهمس في انتظار نتائج التحقيق؟، ربما يكون "الانتظار" لأسبوع أو شهر أو شهرين أو سنة، أو لسنوات، فهل أضمن أن يمضي التحقيق بنفس الرغبة الحارة التي لازمت ماهر الغمراوي رئيس النيابة الذي تم اغتياله اليوم في مسكنه؟! ألم يأن للهمس أن يتحول إلى صياح وصخب وضجيج؟..

اجتاحني شعور بالغضب وأنا أتذكر كتابات صفوان عن "النشاط المتزايد" لعملاء يتقنعون بأقنعة مختلفة، وكم أرجع

"التزايد" إلى "الاتفاقية" التي أتاحت لهم أن يندسوا في جنبات الوطن بأهداف مختلفة وبطرق متعددة.. كم حذّر من "التزايد"، الذي يهدف إلى "الإضرار" بوطن متسامح، وكم نبّه إلى ضرورة "المواجهة" برقابة "مضادة"، وتدقيق في منافذ الدخول إلى الوطن والخروج منه حرصاً عليه وحماية له.. ها نحن الآن نرى نتيجة "التسامح" الذي أنسانا مراقبة منافذ الدخول والخروج، وابتلانا بالخطف والاغتيال.. إلى متى يستمر الصمت على التدبير الساعي في الخفاء بقصْد النيْل من مسيرة وطني؟! شارك صفوان في حربي الاستنزاف و ٧٣ بنفس عالية، وقلب عاشق لتراب الوطن.. وواصل عشقه له وهو يخوض بقلمه معركة التبصير بخطورة استراتيجية الدولة العبرية التي لا تكف عن التوسّع والإيذاء، فهل نكتفي بمراقبة لا ترى ولا تسمع ولا تتكلم؟! هل نقنع بحكمة القرود الصينية؟!..

(٢١)

شاركت أنا ونبيل في الجنازة المهيبة التي مشى فيها قضاة ومحامون يتصدرهم مندوب الرئيس، ووزير العدل، والنائب

العام.. تطلعت إلى الوجوه فبدت فيها ملامح الحزن. بدأ التشييع من جامع عمر مكرم ليمشي خلف النعش مئات المشيعين. أحسست أن دواخلهم تغلي بالأسى وتضطرب بالغضب، ونشطت الأسئلة التي راودتني وتراودني طوال الأيام السابقة، وها هي تلازمني وأنا أجلس بجوار نبيل في سيارته المتهادية خلف السيارة التي تحمل جثمان فقيد النيابة ووزارة العدل إلى مثواه الأخير..

كما لازمتني الأسئلة، وأنا ألبي دعوة نبيل في اليوم التالي للقائه بكازينو قصر النيل.. فضلت أن أقطع المسافة إلى الكازينو على قدمي.. وجدته يجلس في انتظاري في مكاننا المعهود.. خيم الحادث على الجلسة التي انضمت إليها "همس" بدعوة من نبيل.. تبادلنا خلالها نظرات حائرة لدقائق، قطعها صوت همس المفعم بالتوتر:

- انتشر خبر الاغتيال. وبعض الصحف شككت في قدرة الدولة على المواجهة.

رأيتني أضرب المنضدة بقبضة يدي وأقول:

- كيف قبلنا تغلغلهم إلى هذا الحد؟!

فبادر نبيل:

- بالتسامح، والتهاون، والمهادنة..

فصرخت همس ثائرة:

- لن أسكت. سوف أثار بمقال غداً.

تلفت حولي فلم أجد شيئاً يريبني؛ ثمة موائد قريبة خالية، وموائد بعيدة يشغلها عشاق يتبادلون الهمس. داخلني اطمئنان فلم ألاحظ في تلفتي عيناً تراقب، لكنني قلت لأخفف من وقع صوتها الغاضب:

- المسألة أكبر وأخطر من كلمة مكتوبة هنا وهناك.. والمشكلة أن الدولة تسرّب دائماً الإحساس بأنها غير مستعدة لخوض حرب جديدة.

فقالت همس محتجة:

- تخاذل لا يجب أن يستمر.

فقال نبيل:

- الظروف الدولية الآن لا تساعد على تعديل أو تغيير الاتفاقية.

فقلت باستنكار:

- أمننا القومي مهدد.. وفي خطر، وعلينا أن نتابع ما يجري في دول أعالي النيل من محاولات، وعلى الحدود من استفزازات مثيرة، وحوادث قتل وإصابة يعتذر الجانب الإسرائيلي دائماً عنها بأنها أخطاء يجري بسرعة التحقيق فيها، ويجب أن نواجه استراتيجية الدولة العبرية في تقسيم الدول المحيطة بها إلى دويلات صغيرة ضعيفة ليسهل السيطرة عليها، كما صرّح بذلك الكاتب الصهيوني أوديد إينون في كتابه "الأرض الموعودة".

فأضاف نبيل:

- لا تنس أنهم يحرضون بدو سيناء على الحكومة، ويمدون قبائل بالسلاح والمخدرات والمال، لضمان ولائهم. إنهم

يخططون لفصل سيناء أو إعادة احتلالها، أو إنشاء دولة من البدو لتكون داخل دائرة نفوذهم.

فعقبت همس:

- وسوف تسارع دول كالعادة بضغط أمريكي إلى الاعتراف بمثل هذه الدولة.

لم أشعر بالضيق من الحوار ولم أعترض عليه. ولم يتمسك ذهني بالاتفاقية. نجحوا طوال الخمسين سنة الماضية في تحويل "حق تحرير الأرض" إلى "مطالب استجدائية". كيف وصلت بنا الحال إلى استجداء الدولة العبرية لتوافق على ردّ أراض اغتصبتها وضمتها بعد حرب ٦٧؟. كيف وافق الجميع على استمرار "التهديد" الذي يمارسه المغامرون القادمون من دول الشرق والغرب؟! هل تكفي المواجهة بمشاعر الحسرة، وإجراءات الاستسلام للأمر الواقع والتسليم به؟. هل سيتواصل القمع ويستمر الخضوع؟، متى يُسترد ما أخذ؟ ويُستعاد ما اغتصب؟، ويُسترجع ما تم الاستيلاء عليه؟..

قفز فوق خواطري المتزاحمة صوت نبيل.. نقر صوته قمة رأسي بمنقار طائر صغير. فانتبهت، فقد قال يدلي بمعلومات خطيرة:

- مساء أمس. راقبت عزام البواب بتاكسي. تابعته وهو يركب سيارة "ميكروباص"، ثم ينتقل إلى أخرى حتى وصل إلى حي الروضة. صرفت التاكسي ومشيت خلفه عن بُعد في شارع المقياس دون أن يراني، رأيته يخطو عدة خطوات ثم يتوقف أمام العمارة رقم (٤) ذات الطوابق الستة. استقل المصعد دون أن ينظر وراءه.. اتجهت نحو بابه وتابعت مؤشر الأدوار المثبت في أعلاه.. توقف عند الرقم (٦).. استدعيت المصعد الذي ارتفع في أقل من دقيقة.. الطابق السادس عبارة عن شقة واحدة، يتوسط بابها لافتة تحمل اسم "مانويل زخاري" خبير اقتصادي، اقتربت من الباب قليلاً وأصخت بسمعي؛ تناهى إليّ صوت البواب.

- فكروا في طريقة أنا خائف.

فأجابه صوت لم أسمعه من قبل بلكنة أجنبية.

- لا تخف.. كل شيء معمول حسابه.

وسمعت صوتاً ثالثاً باللكنة نفسها:

- لا تحضر هنا مرة أخرى.. والاتصال سيكون عن طريقنا.

تعجبت من وضوح الأصوات الثلاثة.. لم يأخذ الجميع جانب الحذر والحيطة.. ثم لم أعد أسمع أي صوت، فقدرت أنهم ابتعدوا عن الباب أو غابوا في غرفة، أو أنهم شكوا في وجود أحد بالباب يسترق السمع، فأسرعت إلى باب المصعد الذي هبط بي في أقل من دقيقة..

تعجبت مرة أخرى قبل أن أخرج من باب العمارة؛ نزل شوقي وهند من سيارة توقفت أمام الباب.. تراجعت وتواريت بصعود درجات السلم. نظرت وهما يستقلان المصعد الذي أظهر مؤشره أنهما يقصدان الطابق السادس، انتظرت قليلاً حتى ظهر

بواب العمارة فسألته عن ساكن الطابق السادس، فذكر أنه خواجة من رومانيا، حاجز الشقة منذ شهرين، وهو يتكلم عربي مكسّر، وهو شديد الكرم..

تابعت أثر رواية نبيل على وجه همس القمري. تضاعفت في ملامحه الكآبة، وكساه العبوس، وبدت في عينيها نظرات الحسرة والذهول، وزمّت شفتيها دليل التوتر والغضب، ولم تكف يدها عن الطرق على سطح المنضدة طرقات متوالية وإن بدت غير مسموعة.. أشفقت عليها فقلت أساندها في انفعالها رغبة مني في تهدئة نفسها الحافلة بالخواطر والأفكار.

- لابد من نهاية لكل ما يحدث في الوطن.

وعقب نبيل:

- لابد من مواجهة الرأس المدبّر.

- من؟

- أعتقد أنه "مانويل زخاري".

- وربما يوجد رأس آخر غيره.

قلت في نفسي: لا أستبعد صلته باختفاء صفوان، واغتيال كمال وهدان و "ماهر الغمراوي" فكيف لم تنتبه إليه الشرطة وجهات التحقيق. وقال نبيل بوهن:

- استعلمت عنه فعرفت أنه على صلة برجال أعمال وضباط شرطة وبعضو في مجلس الشعب. أخبرني بذلك أمس الضابط مجدي الذي اتصلت به أول أمس..

غادرنا الكازينو عند تقدّم الليل ونحن نشعر بأحاسيس العجز والوهن والقنوط.. وافترقنا على موعد في الساعة الحادية عشرة من صباح غد بمنزل نبيل بجاردن سيتي..

(٢٢)

آثرت أن أعود إلى مسكني عائدا على قدميّ مثلما جئت. قطعت عدة أمتار ثم وقفت عند نهاية سور الكازينو القريب من تمثال سعد زغلول المشرف على مدخل الجسر العريق الذي يربض على جانبيه الأسدان البرونزيان..

استغرقني التفكير في "الرجل" المرفوع الهامة و"إصبعه" الذي يشير به إلى المستقبل القريب الزاخر بالأمل والتفاؤل.. فكرت في صموده الشهير وصبره المعروف وتحريكه للأمة في ثورة ١٩ لمواجهة الاحتلال البريطاني للبلاد حتى وفاته عام ١٩٢٧، وقبله سقط الزعيم الشاب مصطفى كامل عليلاً بقلبه الذي أمرضه الانفعال وهو يجابه إنجلترا مطالبا بالاستقلال في المحافل الوطنية والدولية.. وفكرت في "عرابي" الذي تصدّى للهجوم البريطاني بإمكانات متواضعة، وسقط نتيجة التخلي والخيانة.. ثم عدت إلى تأمل سعد زغلول في شموخه وإصراره فغشيتني مشاعر جياشة.. وصاح بي صوت رخيم ذكرني بصوت أشرف الساعي: انتظارك سيطول، ولكن عليك ألا تسلم باختفاء صفوان الكاشف إلى الأبد..

تحركت من المكان متخذاً رصيف سور الأوبرا الذي يفضي إلى كوبري الجلاء.. كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة مساء وأنا أفكر في المعلومات التي أدلى بها صديقي نبيل. هاهم

الخونة والمدبرون يلتقون في مكان واحد.. وهاهم أخيراً يفصحون - دون أن يعترفوا - بأنهم قتلة ومتآمرون، ويتحركون داخل البلاد بعقول مدربة على التخلص من آثار الجريمة.. لا تريد جهات البحث أن تؤكد مقتل صفوان، لكنني أشعر أحياناً بأنه غاب إلى الأبد ولن يعود. فهل يفلت هؤلاء من العقاب؟.. هل يظن أحد أنني سأستسلم وأرفع راية يأسى؟ أنتم واهمون..

الآن قد امتلأت باليقين، ولن يمنعني أحد من تنفيذ القرار الذي اتخذته.. أعلم أنهم سيضغطون بأكرم وعزيز، لكن حركتي سوف تكون أسرع مما يظن أحد، وما عليّ إلا تلبية رغبة صفوان بأن أقابل أشرف الساعي الذي لن يخذلني، فعنده الرأي والنصيحة والمشورة..

(٢٣)

عاودت قراءة مقال همس الجوهري المنشور منذ يومين في جريدة الشهاب. عنوانه بالخط العريض: "حتى رئيس النيابة...!" حملتْ فيه على العملاء الذين دبروا ونفذوا جريمة

اغتيال ماهر الغمراوي الذي أوشك على الوصول إلى المدبرين والجناة. كما تسأءلت عن سبب تأخر السلطات حتى الآن في اعتقال الرءوس المدبرة التي أزاحت صفوان الكاشف بالخطف، وكمال وهدان بالاغتيال إذا كانت تراقب وتلاحق.. وختمت المقال بسؤال غاضب: هل سنكتفي بذرف الدموع وبأصوات الاحتجاج بينما يمرح العملاء في البلاد؟ إنهم يتحركون في اطمئنان، ويعمدون إلى التدبير الذي يمكنهم من التربص، والمراقبة، والإزاحة..

انتزعني من فقرات المقال رنين التليفون.. جاءني صوت نبيل واهناً ضعيفاً باكياً:

- همس.. همس. طعنها في رقبتها صباح اليوم شاب مقنّع وهي داخل سيارتها تستعد للتحرك.

ألجمني الخبر.. ارتعت. لم أستطع النهوض من مكاني، وجسدي بينما واصل نبيل قوله:

- هرب الجاني في سيارة سوداء بلا أرقام كانت بانتظاره. عجزت ساقاي عن حملي.

- لم يحدد وجهه المارة لأنه كان يرتدي قناعاً أسود. احتبس صوتي فلم أتمكن من الكلام. وأردف.

- هي الآن في مستشفى مصر الدولي.

- مَن أخبرك؟

- ناهد أخت همس.. كلمتني لأخبرك. أنا في الطريق إلى المستشفى.. سأصل بعد قليل.

في غضون ٢٠ دقيقة كنت مع نبيل في المستشفى. التقينا في البهو الأبيض، وهرعنا إلى رقم غرفة العناية المركزة بالطابق الثالث... وقد سمح لنا بالصعود بناء على موافقة المدير تلبية لطلب ناهد أخت همس، لاسيما أن جهات التحقيق قد فرغت منذ قليل من أخذ أقوالها عن الحادث الذي أتوقع في النهاية أن يقيّد في محضر التحقيق بصيغة "ضد مجهول"..

انفتح باب العناية المركزة على ممرضة قادتنا إلى غرفة مستقلة يتوسطها سرير ممددة فيه همس بلا حراك.. اقتربنا منها، يجلس في مقعد بجانبها الأيمن ممرضة بينما جلست في الجانب الأيسر شقيقتها ناهد التي نعرفها وتعرفنا. نظرت في وجه همس المستدير فرأيت ابتسامة غير يائسة، بينما تحركت شفتاها بكلمات لا أسمعها بإذني، ولكن قلبي سمعها فهي تحثني على الاستمرار في البحث عن صفوان. وقالت الممرضة:

- منذ أن وصلت وهي تردد اسمين تطلب حضورهما: الدكتور رشيد الكاشف، والدكتور نبيل جريس.. وظلت ترددهما بعد الإفاقة من الجراحة..

وقالت ناهد:

- طلبت صباح اليوم ورقة وقلماً. وأملتْ عليّ لكما رسالة..

أعطتني ناهد ورقة مطوية.. فردتها ثم قرأت سطورها بصوت مسموع، ليسمع نبيل: "العزيزان: رشيد ونبيل، لم أر وجه

الفاعل الذي طعن رقبتي لكنني أعرف مَن جنّده.. سمعته ليلاً قبيل سفره إلى الإسكندرية وهو يتكلم. نفّذ.. نفّذ لن يمنعنا شيء أو أحد من التنفيذ.. تصرَّف تصرَّف.. لابد من التصرّف. استبعدت سرعة التنفيذ. عندما جلست في المقعد وربطت حزام الأمان وقبل إدارة المحرك هاجم وطعن رقبتي وهرب.. إنه مقنَّع. لكنني أعرف مَن جنّده لطعني.. أشعر أني موشكة على الموت. احذرا.. يواصلون التنفيذ لإزاحتنا جميعاً. الرأس المدبر – كما قال نبيل – هو "مانويل زخاري".. عرفت من ضابط قريبي أنه مرصود. وقد تم استدعاؤه مرة.. ولأنهم لم يجدوا شيئاً ضده– أفرج عنه بعد تدخل السفارة الرومانية والسفارة الأمريكية، فهو يجمع بين الجنسيتين.. رأيته منذ سنوات في نيويورك يتحدث إلى شوقي عندما كنت أغطي تداعيات الحادي عشر من سبتمبر، كما رأيته في الإسكندرية حينما كنت مدعوة على عشاء في مطعم الأمواج.. لست واثقة من النجاة. فأوصيكما برعاية عدلي وكريم..".

تأملت بقلب واجف، ونفس متألمة، ونظرات شاردة الأربطة التي أحاطت العنق والرأس. تبادلت مع نبيل نظرات

الأسى والغيظ، كم تحملتْ همس وتتحمل آثار التآمر والتدبير الليلي. أين شوقي الآن؟!.. المؤكد أنه في الإسكندرية ليثبت أنه لم يكن موجوداً عند وقوع الحادث، وربما يكون في مكان آخر.. وتساءلت وأنا أتأمل وجه همس:

- عرف شوقي بالحادث؟

هزت رأسها وقالت بصوت لا يكاد يبيّن:

- عرف.. أبلغته ناهد.

قلت في نفسي: شوقي هو المحرّض.. وسوف يجد ما يبرر غيابه أثناء وقوع الحادث.. وربما يسأله المحققون فور عودته، وربما يرجئون طرح الأسئلة ليوم أو لأيام حتى تهدأ العاصفة. وسوف تنتهي التحقيقات بتقييد الحادث "ضد مجهول".. قلت بصوت جاهدت أن يكون مسموعاً:

- كيف تستمر الموافقة على هذا "الفاعل المجهول"؟

فبادرني نبيل قائلاً:

- وهل نملك إلا الموافقة؟!.

- الخطأ أن تقبل ونوافق.

- دع جهات التحقيق تؤد دورها.

- لا أظن أنها ستصل إلى شيء في المدى القريب، وإذا اقترب أحد المحققين من كشف الغموض، فالمصير معروف..

رغم أن صوت كلامنا قد اتسم بالخفوت والهمس، فإن صوت همس الواهن عقّب على كلامي:

- احذرا اليأس.. يجب معاقبة الجناة.. الجناة.. الجناة.. اثأرا لي.. اثأرا لنا.. اثأ..

لم تكمل همس الكلمة الأخيرة. خفت الصوت، سكت. توقف جهاز قياس الضغط.. توقف القلب، فأسرع الأطباء والمساعدون إليها.. لكن لفظت همس الروح أمام عيوننا. تقدمت ووضعت كفي اليمنى على ضمادتي الرأس والرقبة. ربت خدّها.

لأول مرة منذ عرفتك يا همس ألمس خدك الدافئ، وانحنيت على يدها اليمنى وقبّلتها. شاء قدري ألا ألمس الخد والكف إلا عند وفاتك يا همس. أي حظ؟! وأي حزن! وأي قهر وأي غيظ يتملكني الآن!. ها هي تضيع أمامنا، ويتوقف قلبها على مشاعرها التي آثرت إخفاءها مراعاة لحياتها الزوجية. أين شوقي الآن؟.. هو تأكد من رقبائه المنتشرين أن الإصابة خطيرة وقاتلة ولن تنجو منها.. ربما يكون الآن مع هند أم أكرم وعزيز. ليكن. سوف يدفعان الثمن.. حان وقت التنفيذ الذي لن يبقى ولن يذر، وسوف يساندني القدر، ولا أظن أنني سأتراجع أمام وابل الخطر..

انسحبنا بهدوء وحسرة امتثالاً لطبيب الرعاية ومعاونيه، هبطنا إلى البهو لتمضي إدارة المستشفى في إجراءاتها الإدارية من إبلاغ الشرطة والعائلة وجريدة الشهاب..

فور هبوطنا إلى البهو أحاط بنا صحفيون وصحفيات من "الشهاب" و "الأخبار" و "الأهرام" و "الوفد" و "الأسبوع". تحدث نبيل إليهم وتحاور معهم دون أن يتهم أحداً. فالشرطة وجهات

التحقيق هي المخولة بإدلاء التصريحات التي تتعلق باغتيال الصحفية اللامعة "همس الجوهري"..

اجتاحني الإحساس بالعجب وأنا أشاهد "شوقي" واقفاً يتلقى العزاء بعمر مكرم في اليوم التالي للوفاة: وصل إلى المستشفى بعد أن فارقت الحياة، تساءلت وأنا أتابعه: كيف تمكن من إظهار جهله بالقاتل، ومن التظاهر بالحزن والأسف، ومن الثبات وهو يتقبل أمواج المعزين؟!..

(٢٤)

علمت من نبيل أن الشرطة قد استدعت شوقي لسؤاله، وأنه مثل أمام النيابة بصحبة اثنين من كبار المحامين.. وقد أثبت أنه بات ليلة الحادث في فيلته بالإسكندرية، واستقبل في المركز وفدًا من جمعية "حقوق الإنسان الكندية" صباح اليوم التالي، وأنه دعا الوفد إلى غداء عمل استمر حتى الرابعة مساء، ولم يعرف بالخبر إلا من ناهد شقيقة همس ومن ولديه عدلي وكريم..

وأضاف نبيل:

- أخبرني وكيل النيابة الشاب مسعد نور بأنه غير مطمئن لأقواله. لكنه اضطر إلى تصديقه لأنه لم يثبت عليه شيء حتى الآن.

- والنتيجة؟

- معروفة: "ضد مجهول".

- كارثة.. سوف أعرض رسالة همس على النيابة.

سرت إلى مبنى النيابة بالدقي وأنا أحمل "الرسالة". قلت لنفسي وأنا أقترب من المبنى: كانت همس نقطة الضوء الباهر وسط طيات الظلام.. كيف أسلم برحيلها وأسكت وهي التي لم تكف عن التفكير في غياب صفوان؟ لم تسلم أغلب الوقت برحيله. ها هم قد نجحوا في إزاحتها، ومن قبل أزاحوا صفوان، وكمال وهدان، ورئيس النيابة ماهر الغمراوي. وربما يكون في القائمة نبيل جريس، ورشيد الكاشف. أعلم أن العملاء يرصدون حركتي وحركة نبيل. ها أنذا أرى ثقوباً في سقف الأمان الذي كم رجوت

أن يبقى بلا ثقوب ليحمي وطني. ها هو السقف تخترقه معاول العملاء.. وسمعتني وأنا أقول لديّ قدرات لم تختبر.. وحان الوقت لتنفيذ ما سبق أن فكرتُ فيه.. وقال بداخلي صوت رخيم:

تذكّر أنك كنت مشهوراً بين أقرانك بالقوة البدنية، وبسرعة اتخاذ القرار.. كم جازفت من أجل أصدقائك. أنسيت أنك – أثناء البعثة إلى هارفارد – خلصت زميلتك الأمريكية من محاولة خطف واغتصاب، تعرضت لها في أحد أزقة كمبردج، فهاجمت الجناة الذين لاذوا بالفرار؟، تذكّر أنك تطوعت للذهاب إلى غزة في الانتفاضة الأولى لعلاج الجرحى والمصابين وسط خطورة ردّ الفعل الإسرائيلي، وأنك خلصت صبياً من أيدي جندي إسرائيلي لم تبال بشراسته واحتمائه بأحدث الأسلحة، وتذكر أنك تملك "قدرات بدنية وعقلية" تحسن توظيفها في الوقت المناسب..

أنت قوي وجسور ومجازف فابدأ أولى خطواتك نحو تنفيذ ما سبق أن فكرت فيه وقرّرته.. اعرض ما لديك على وكيل

النيابة وليعرف الرقباء أو لا يعرفوا. فلن تكون أول المضارين.. وتذكر دائماً أنك استمعت ونبيل إلى قول همس الجوهري، واستقر في داخلك قولها "اثأرا لي" وهي تحتضر..

حين جلست في مكتب سكرتير وكيل النيابة الشاب انتظاراً لمقابلته أحسست أنني دخلت في "دائرة التصفية". وسوف يتم الضغط عليّ بأكرم وعزيز، ففكرت في هند.. أدليت لوكيل النيابة بتصرّفها الأخير في الإسكندرية، وأن الدكتور نبيل شاهدها في القاهرة بصحبة شوقي وهما يتجهان إلى مسكن "مانويل زخاري" في الروضة، وقلت في نفسي: لا يمكن التأكيد بأنها أم أكرم وعزيز، فواقع تصرفاتها يجعلني أنفي – الآن – أنها أم للولدين. هند مع العملاء لا تفكر في رشيد الكاشف ولا في مَن أنجبت. أي أم!، وأي قوة عاتية اجتذبتك يا هند فسقطت في برزخ الغدر. لستُ قلقاً عليك؛ فقد تبلدت مشاعرك، وتحجّر قلبي وتوارى اهتمام عقلي منذ هددت بالمسدس وغادرت. حقاً أنا قلق على أكرم وعزيز، لكن قلقي لا يمنعني من المجازفة بحياتي في مطاردة الجناة؛ عهدت

بهما إلى شقيقتي بثنية ، وسوف يشاركها في رعايتهما ابنها الأكبر مجدي الصياد..

ها أنذا قد توصلت إلى الحل الذي يطمئن قلبي، لأواصل سعيي إلى المجابهة؛ سأنال منهم قبل أن ينالوا مني ومن سواي، وسوف أجد المساندة من نبيل ومن كل غاضب ثائر حزين.. وها هو الدكتور نبيل يحثني بملامح جادة على التنفيذ. حقاً لم يعرف "قراري" ولكنه يشعر به. وها أنذا أراه يتسلم مني مخطوط كتاب صفوان "استراتيجية الدولة العبرية"؛ اتفقنا على نشره بدار "الصباح" للنشر والتوزيع.. وقد رحب بأن أودعه بمنزله خوفاً عليه من الرقباء الذين لا شك يرصدون، ويضعون رشيد الكاشف في بؤرة التدبير..

استقبلني وكيل النيابة الشاب مسعد نور، تأملني برثاء، فقد عرف – بالطبع – خبر اغتيال همس الجوهري، وأجرى التحقيق في اغتيالها.. رأيت في ملامح وجهه سيماء التصميم على مواصلة العمل في القضية..

أدليت له بكل ما لديّ من معلومات وآراء، وسلمته رسالة همس التي أملتها قبيل وفاتها.. ورأيته يدوّن ملاحظاته بعناية شديدة.. أضفت قائلاً:

- عند الدكتور نبيل جريس مخطوط كتاب "استراتيجية الدولة العبرية" وهو آخر ما كتبه صفوان، وبه أفكار وأسماء ومعه أوراق أرى أنها تفيد في عملية الكشف عن العملاء والجناة.

- هل اطلع عليه أحد؟!

- لا. لأن "صفوان" كان قد أوصى بعدم فتح المظروف إلا بعد حدوث اختفاء.. أو اغتيال.. الحق أنني في شبه يأس من التوصل إليه. ففتحت وقرأت، ولحرصي عليه سلمته للدكتور نبيل؛ لأنني كما تعلم أسكن في شقة مفروشة، واليوم الثلاثاء إجازته.. وهو في منزله بجاردن ستي، لأنه في انتظاري لأتناول معه الغذاء كالعادة في كل ثلاثاء.

امتدت يده إلى التليفون وطلب رقم الدكتور نبيل مرات فلم يجبه أحد، وجرّب المحمول فلم يرد. فغادر المكتب لدقائق ثم عاد وهو يقول:

- أرسلت إشارة إلى قسم قصر النيل طالباً حضوره للأهمية. سيصلون إلى عنوان منزله المدوّن عندنا بعد قليل.

داخلني إحساس بالوهم، وشعور بانقباض صدري، وتذكرت روايته عن ملاحقة "البواب" عزام، إلى شقة شارع المقياس بالروضة التي يشغلها الخبير الاقتصادي "مانويل زخاري"، وصعود شوقي وهند إليها.. فحدثت نفسي باحتمال تعرض نبيل للمراقبة في هذا اليوم دون أن يشعر، وربما حدث شيء لا أعلمه.. في الطريق، أو في المنزل، أو في الكلية أو في المصعد المراقب دائما بأشخاص يتغيرون..

ترك وكيل النيابة المكتب وغاب حوالي ربع ساعة، ثم عاد ليفضي إليّ بخبر عدم ردّه على جرس الباب، والطرق بالأيدي،

وأن الجيران ورجال الشرطة شموا رائحة غاز متسرّب. فصدرت إليهم الأوامر بكسر الباب ودخول المسكن.. صحت مذعوراً..

- حدث شيء له؟!.

- للأسف وجدوه في سريره مختنقاً بغاز متسرب من البوتاجاز. وجاري البحث والتحقيق.

سكت قليلاً وقال:

- لابدّ من وقْف هذا العبث. لابد.

رأيتني أغادر المكتب صامتاً لا أشعر تماماً بما يجري حولي من أصوات وحركات.. حذرتنا همس منذ ثلاثة أيام وهي تحتضر. وقبل همس حذرنا صفوان الكاشف وماهر الغمراوي.. لم أكن أظن أن قرار "التصفية" سيطول نبيل بهذه السرعة.. ثلاثة أيام مضت على رحيل همس ها هم قد قرروا تصفيته.. ولا بد أنهم استولوا على "المخطوط" الكاشف عن خطط إستراتيجية الدولة العبرية الساعية إلى تفتيت الدول العربية إلى دويلات لتصبح هي قوة إقليمية كبرى مسيطرة لتضمن لنفسها البقاء.. وجدتني أصرخ

بصوت غير مسموع ينادي أشرف الساعي ويستغيث به: لم يعد سواك ألجأ إليه.. ضاق بي الحال ولم يعد بجانبي غيرك يساند ويعين.. ها هو صفوان يسطع في رأسي يستحسن اتصالي بك ويشجعني عليه..

(٢٥)

مشيت مع المشيعين لنبيل جريس في جنازة مهيبة انطلقت في الحادية عشرة صباحاً من كنيسة العذراء مريم بجاردن سيتي.. وفي المساء جلست في قاعة التعازي بالكنيسة في الصف الأول وسط أسرة نبيل.. خيّم جو حزين على صفوف المعزّين من الرجال والنساء، بدا على وجوههم التأثر الشديد، وجلس مندوب الرئيس وسط عمداء كليات الجامعة وزملاء الفقيد وتلاميذه بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، بينما رأيت في صف واحد عدداً من رجال الدين المسيحي، وبعض علماء الدين الإسلامي..

استمعت إلى تراتيل العزاء من الأنبا بولس حوالي عشرين دقيقة، ثم تحدث ثلاثة من زملاء الفقيد يحصون مناقبه.. وتكلم راعي الكنيسة وتناول مآثره.. وقلت في نفسي وأنا أستمع إلى

الأقوال: ها هي الجريمة الرابعة في أقل من شهر: كمال وهدان، وماهر الغمراوي، وهمس الجوهري، ونبيل جريس.. وفجأة رأيته في نهاية الصف جهة اليسار.. جلس شوقي الجباسي وقد رسم على وجهه التأثر والحزن..

قلت في نفسي وأنا أستمع إلى كلمات "الرثاء": فجرَ صفوان وهمس مخاوف العملاء فتحولوا إلى قتلة وسفاكين.. وها هو وطني يبدو لي عاجزاً عن المواجهة.. كيف يمكن قبول ما حدث وما يحدث والسكوت عليه؟!. هل خلا الوطن من المحبين له، المكترثين به، المدافعين عنه، المحافظين عليه؟!. أوصلنا الإفراط في "التسامح" إلى قبول "آفات" الصمم"، و"العمى" و "البكم"..! فزيلت تأشيرة "ضد مجهول" كل محضر رسمي يختص بجريمة عجز المحقق عن التوصل إلى مرتكبها..

وجدتني أنهض وأشق الطريق إلى المنصة لأقول كلمة عن صديقي العريق الدكتور نبيل جريس.. رأيت شوقي الجباسي فغلا

الدم بداخلي وفي رأسي، فرفعت عقيرتي لكن لم أسمع صوتي.. احتبس، ومع ذلك أواصل كلاماً لا أسمعه ولا يسمعه أحد. ماذا حدث لصوتي؟!.. بدت في الوجوه المحدقة علامات الانزعاج بأشكالها المختلفة. ماذا حل بصوتي؟! ابتسم شوقي وابتسم!..

يرى الحاضرون فمي - أشعر به - يفتح ويغلق دون صوت. لاحظت الدهشة في الوجوه ومع ذلك أواصل الكلام المكتوم، استمعت إلى صوتي الذي لا يسمعه أحد.. استمعت إلى كلمة واحدة "القصاص" رددتها ثلاث مرات.. وفي المرة الرابعة سمعت الكلمة "القصاص" ترن في قاعة العزاء..

واجهتني نظرات شوقي المتحدية فرأيت في عينيه شقيقي صفوان المغدور به، وجاءت همس الجوهري أم ولديه.. ورأيت بجواره امرأة قريبة الشبه بهند الجارحي، ورأيت كمال وهدان، وماهر الغمراوي، ورأيت صديقي نبيل. وسمعت صوت همس يهمس في أذنيّ: "لم يعد باستطاعتي الآن الدفاع عن أحد. فاحرص على حياتك لتواصل المهمة المقدسة. تمكنوا من إزاحتي فاثأر

لي". وهمس في أذني – وأنا أقدّم تعزيتي – صوت نبيل: "كم وددت أن أرافقك في مهمتك المقدسة"..

(٢٦)

بلغتُ مسكني في العاشرة وأنا أشعر بفراغ هائل، ووحشة شديدة.. جلست في الشرفة المطلة على النيل وانخرطت في بكاء طويل لا أجد أحداً بجواري يوقفه.. لا أدري كم من الزمن استغرقني البكاء، وفجأة لمعت في رأسي الكلمتان "المهمة المقدسة".. أرسلت بصري من الشرفة عبر النيل ناحية المنيل والروضة.. دققت في عمارة رقم (٤) في شارع المقياس بالروضة، رأيت العمارة التي لم أرها أبداً تملأ الأفق. ورأيتني أصعد بالمصعد إلى الطابق السادس.. وأقف أمام باب انفتح وحده دون أن أضغط جرسه أو أطرقه.. وقبل أن أخطو إلى الداخل جذبتني يد "أشرف الساعي" وقال: تعال معي.. أنا في انتظارك في الإسكندرية، وسمعت صوت صفوان يهمس في أذني: إذا ضاقت بك الحال فعليك بأشرف الساعي. فاستدرت بعيني لأراه يطير في الهواء فوق الطريق الصحراوي..

هبّت عليّ نسمة نيلية نبهتي من غفوتي. عجبت من حلمي القصير الذي ذهب بي إلى الروضة التي لم أزرها أبدا.. وقرّبني من الباب الذي انفتح دون جرس أو طرْق، وجعلني أرى أشرف الساعي وأسمع كلامه وأتابعه في طيرانه إلى الإسكندرية..

رأيتني قبل أن يحتويني الفراش في الحادية عشرة، اتصل بالإسكندرية لأسمع صوت شقيقتي بثنية ، وولديّ أكرم وعزيز، وابن شقيقتي الضابط مجدي الذي طمأنني عليهما، فهو يراهما صباح مساء.

لم أتمكن من النوم فظللت يقظا أفكر وأتساءل: كيف أتصالح مع النوم وقد رحلت همس ونبيل؟! كيف أستريح ولم تصل جهات التحقيق إلى صفوان؟! أيمكن أن أشعر بالأمان ولم يظهر حتى الآن قاتل كمال وهدان وماهر الغمراوي وهمس ونبيل؟! ومتى يطبق القصاص الذي يردع ويوقف التدبير ويجهض تآمر العملاء المغامرين؟..

فجّرت الأسئلة برأسي صوراً انثالت على ذهني لهند وشوقي، وعزام، وبهادر الجبالي، ومانويل زخاري الذي يجد دائماً

من يستقبله بترحاب بالغ كلما هبط في المطار، ومن يودعه بحفاروة كبيرة عند المغادرة. وتساءلت ربما للمرة الألف أو يزيد: كيف لا أصل إلى معلومات حتى الآن تشير إلى قرب اعتقال الجناة؟..

حقاً إن ثمة عيوناً ساهرة على مداخل الوطن ومخارجه، وساهرة على قاطني مدنه وقراه، ولا يمكن إنكار عناية الدولة بتحقيق الأمن وإقرار الأمان – لكن "اختراق" المداخل والمخارج مستمر منذ توقيع الاتفاقية. كانت "الثقوب" ضيقة عقب التوقيع بعام أو أكثر، هي الآن تتسع وتتسع، فمتى تزداد إجراءات الوقاية الأمنية؟!. وتساءلت: هل تجرى عمليات "الاختراق" للجانب الآخر؟، لا أظن؛ فنحن أمة متسامحة وسريعة النسيان!.. وها هو شقيقي صفوان الذي عنيت باختفائه المريب وسائل الإعلام قد نسيه أو كاد ينساه المتابعون لتعدد الأحداث الأخرى وسرعان ما ننسى حوادث اغتيال: كمال وهدان، وماهر الغمراوي، وهمس الجوهري، ونبيل جريس باغتيال جديد..

ها هي كلمتا "ضد مجهول" تتردد في أرجاء الوطن دون محاسبة أو تأمل، فهل يتوقع أحد من رشيد الكاشف دوام الصمت والرضا الدائم بالأمر الواقع؟ لكن هل يستمر اطمئنان "العملاء" إلى سلامة التدبير، و "الجناة" إلى إحكام جرائم الاغتيال؟..

عاودني صوت صفوان بأن أقابل أشرف الساعي إذا ضاقت بي الحال. ووردت على ذهني صورته وهو يجذبني قبل أن أدخل مسكن مانويل زخاري الذي انفتح بغير جرس ولا طرقات، وصورته وهو يطير فوق الطريق الصحراوي قائلاً: أنتظرك في الإسكندرية..

(٢٧)

اتصلت من تليفوني المحمول بأشرف الساعي وبثثته همي وحزني، فقال إنه مبتئس لغياب صفوان صديق عمري الذي أنقد حياتي ولم يتخل عني يوم دمرنا الموقع المعادي، وقال بصوت رخيم:

- أقترح عليك أن تعود إلى عملك وعيادتك.

- لا أستطيع قبل الوصول إلى الحقيقة.

- دع جهات التحقيق في إجراءاتها، وعد إلى الإسكندرية فوراً.

- وهل يمكن أن أقابلك الليلة؟

- ممكن بعد أن تستأنف عملك بالعيادة.

اتخذت الطريق الصحراوي في الثالثة عصراً. شعرت ببعض الرَاحة وأنا أقود السيارة بحذر ودون توتر. رأيت عبر الزجاج الأمامي وجوه صفوان، وكمال، والغمراوي، وهمس، ونبيل.. رأيت في الملامح بعض الارتياح، وربتت همس ظهري بحنان، ولوحت لي أيد محيية على جانبي الطريق، وبدا وجه صفوان يحثني على مقابلة أشرف الساعي لأنك يا رشيد في حاجة ماسة إليه..

نعمت بمشاعر جياشة وأنا أوقف سيارتي في الساعة السادسة بجوار باب العمارة.. صعدت بسرعة.. انفتح الباب على الصالة فأسرع إليّ ولداي أكرم وعزيز.. قبلتهما وربت الظهرين

وأنا أمشي بينهما لأعانق شقيقتي بثنية وابنها مجدي الصياد.. تحدثت إلى الجميع بعض الوقت، ثم جاءتني مكالمة من أشرف الساعي على المحمول لاحظت أنها ليست من محمول، ولا من تليفون أرضي، فهي من كشك "ميناتل"، فربما يكون هناك من يراقب:

- حمداً لله على سلامة الوصول. اذهب إلى العيادة في السابعة وسوف أحدد لك مكان اللقاء..

نظرت في ساعة الحائط المواجهة التي يدنو الزمن فيها من السادسة والنصف، اتصلت بتلميذي الدكتور جمال زكي الذي أدار العيادة في غيابي، وأخبرته أنني سوف أكون بها في تمام السابعة لأستقبل المرضى والمراجعين.

علقت بثنية على خبر استئناف عملي قائلة:

- خطوة صحيحة في الاتجاه الصحيح..

وقال مجدي:

- أسفت لوفاة همس والدكتور نبيل.. لكن يا خالي تأكد أن لكل شيء نهاية.

وقالت بثنية:

- لم تحضر هند في أي وقت.. توقعت أن تحضر وأن تسأل، ولكنها لم تحضر ولا سألت.

كأني لم أسمع ما قالته.. تجاهلت وقلت:

- سأذهب إلى العيادة.. وأراكم في العاشرة.

بدلت ملابسي.. وحملت حقيبة الكشف الصغيرة.. ومررت بعيني للحظات على محتويات غرفة المكتب. الشهادات، والصور، وقصيدة المدح.. غادرت الغرفة عابراً الصالة وفتحت الباب. خرجت ورددت الباب ورائي.. هبطت بالمصعد واستقللت سيارتي قاصداً العيادة.. وقعت الكشف على عدد من مرضاي القدامى، والمرضى الجدد.. وصفت، واقترحت، وسجلت معلومات، ولكن ذهني لم يكن رائقاً تماماً؛ كنت أفكر طول الوقت في أشرف الساعي الذي سأقابله بعد الفراغ من الكشف على مرضاي..

في التاسعة رنّ جرس المحمول بعد أن كشفت على آخر مريض في غرفة الكشف المجاورة التي تتصل بغرفة المكتب بباب بينهما. اتجهت إلى التليفون، واستمعت إلى صوته الرصين الذي يشبه صوت شقيقي صفوان يأتي من تليفون بكشك "رنجو" قال:

- غادر العيادة الآن.. تحرّك بسيارتك وجرّشها في جراج محطة الرمل.. ثم تجوّل في شارع صفية زغلول بعض الوقت، واستقل تاكسياً بعد ربع ساعة، وسوف تجدني في انتظارك بمكتبي لنتحدث ولأستعيد معك الذكريات.

نفذت ما طلبه مني.. غادرت بهدوء مودعاً ومحيياً تلميذي الدكتور جمال والممرض حفظي ناشد والممرضة هناء العسال.. هبطت الطابقين على قدمي فلم أشأ أن أستقل المصعد.. ركبت سيارتي حتى محطة الرمل.. أوقفتها في الجراج امتثالاً لتعليماته.. وبعد جولة قصيرة في شارع صفية زغلول أشرت إلى تاكسي قائلاً "ميدان المنشية".. تحركت خواطري بشدة وتوالت دقات قلبي بعنف والتاكسي يقترب من الميدان. نزلت ومشيت إلى الأمام عدة

أمتار.. ثم رجعت وقصدت يافطة شارع فرنسا المتفرع من الميدان، مكتوب في الوسط بخط أحمر كبير "شركة العبور للتعمير"..

ما إن تجاوزت عتبة الباب الزجاجي حتى وجدت شاباً وسيماً مفتول العضلات في استقبالي.. سبقني بخطوتين كمن يفسح لي الطريق، ثم طرق باباً عريضاً طرقه طرقتين وفتحه لأرى "أشرف الساعي" يتوسط مكتبه قاعة واسعة وتعلو المكتب صورة كبيرة لجندي يرفع العلم المصري فوق تل بسيناء.. لاحظ تنقل نظراتي وأنا أقترب منه بين صورة الجندي حاملاً العلم، وجسمه الرشيق النشط حيث يمشي لاستقبالي في وسط الغرفة ليجمعنا سلام حار وعناق طويل..

جلسنا في مقعدين متجاورين.. تأملت ملامحه الهادئة التي تشبه ملامح صفوان – فظننت أنه لا يعرف ما جرى في الجيزة والقاهرة من أحداث الاغتيال، لكنه قال ونحن نحتسي الشاي:

– أسفت كثيراً لاختفاء صفوان حتى اليوم.

- عرفت ما جرى لماهر الغمراوي وهمس الجوهري، والدكتور نبيل جريس؟!

- عرفت من مصادري الخاصة، ومن الجرائد،.

- أصابني اليأس والإحباط.

- لكل شيء نهاية.. لكل شيء نهاية.

- هل ستساعد في البحث عن صفوان؟

- لصفوان ونبيل حق عليّ.. أنقذاني من موت محقق، لولاهما لما نجوت.

سكت قليلاً ثم استأنف كلامه:

- أثناء حرب الاستنزاف - عبرنا القناة ليلاً بقارب مطاط، حمل أسلحة ومواد تفجيرية وقذائف آر. بي. جي.. كنا ثمانية يقودنا ضابط شاب. هاجمنا تجمعاً بسيناء سبق أن رصدته "وحدة الاستطلاع" تحميه دبابة قيادة. نجحنا في تدمير القوة، وأسر صفوان قائد الدبابة بعد إصابتها، وسلمه

إلى الضابط.. وأثناء عودتنا إلى الشاطئ انهالت علينا قذائف دمرت القارب وأصابت ظهري رصاصة فسقطت قبل الوصول إلى القارب الذي تم تدميره، فحملني صفوان فوق ظهره بمساعدة نبيل، وسبحا بي في مياه القناة حتى الشاطئ الغربي. حياتي فداء لصفوان الكاشف، ونبيل جريس..

رويت له وقْع الاختطاف، والاغتيال على نفوسنا أنا وهمس نبيل الذي كان آخر من اغتيل، كما رويت له مراقبته للبواب عزام ذات يوم وتتبعه له حتى عمارة رقم (٤) بالروضة في الدور السادس الذي يشغله مانويل زخاري، وكيف أنه اكتشف تردد شوقي الجباسي وهند الجارحي على مسكن الروضة، كما تابع "عزام" في المهندسين يجلس في سيارة مع أمين الشرطة بهادر الجبالي يقودها شرهان العايدي سائق الغرباء الثلاثة الذين اختفوا باختفاء صفوان، تصوّر.. اغتالوا أربعة في أقل من شهر. أي أمن! وأي تسامح!.. لم أعد متأكداً من أي شيء على الإطلاق..

لم يقاطعني بل ظلت ابتسامته الواثقة على شفتيه وهو يدون في ورقة صغيرة، فقلت في نفسي: أشعر الآن أنه على علم بكل ما جرى ويجري، فلم يبد أي دهشة حين ذكرت أسماء "مانويل" وشوقي، وهند، وعزام، وشرهان، وبهادر. وأضفت قائلاً:

- الحق أنني يائس للغاية. وعندي أفكار وخواطر.

- لا تبتئس.. لكل شيء نهاية. عد غداً إلى الكلية، وإلى طلابك ودعهم يلتقوا بك.. وتناس ما حدث، ولا تغادر الإسكندرية إلا بعد الكلام معي..

نهض من مقعده وقال بصوت رخيم:

- نفذ دائماً ما أقترحه عليك.

مد يده لي وضغط كفي ضغطة قوية، وعارضني بابتسامة مشرقة ذات معنى فهمته.. وقال:

- أفضل ألا نتقابل لبعض الوقت.. وسوف أتصل أنا بك.

حييته وغادرت المكتب الذي انفتح بابه على الشاب الرياضي الوسيم الذي سبق واستقبلني. تقدمني بخطوتين حتى الباب الزجاجي، فتحه ودلفت منه إلى خارج المبنى قاصداً سيارتي. رغم أن اللقاء لم يستغرق سوى نصف ساعة، فإنه أضاء ذهني بأفكار وخواطر جديدة أشعرتني بأنني لأول مرة بعد ضياع همس ونبيل لم أعد وحدي؛ فثمة من يساندني الآن في محنتي، فيخفف من كربي، ويشدّ من عضدي. ويهدئ من ثائرتي ويطمئن قلبي على أكرم وعزيز..

ويبدو أن إحساس "الاطمئنان" قد ظهرت آثاره على وجهي، لأن وجوه بثنية وأكرم وعزيز قد علتها سيماء الراحة والاطمئنان.. وتوطّد اطمئناننا ونحن نجلس جميعاً – وقد انضم إلينا مجدي – حول مائدة الطعام نتناول العشاء، ثم ونحن نتخذ أماكننا في الأنتريه لتناول قطع "جاتوه" أحضرها معه مجدي.. وهو الإحساس الذي لازمني عندما لجأت إلى فراشي لأنام بمفردي بعد أن شاهدت في آخر المدينة شبح هند الجارحي التي لم تعد تعنيني في شيء.. فما يعنيني هو تنفيذ مهمتي المقدسة..

(٢٨)

لم يفارقني اطمئنان نفسي وأنا استأنف عملي بالكلية، فأحاضر طلابي، وألتقي بالعميد، وبزملائي من قسم الجراحة وبطلبة الدراسات العليا الذين أظهروا سعادتهم بعودتي إلى القاعات، والمستشفى الجامعي.. وبين الحين والآخر أرى وجه همس الجوهري في قاعات الدرس، وفي أسرّة أقسام الجراحة، كما أشعر بنبيل وهو يرافقني في جلسات المساء في المنزل أو النادي، أو المطاعم المشرفة على البحر، وكم تذكرته وأنا أجالس العميد بحري أحمد كامل في النادي البحري..

وهاهي أربع صحف بجواري فوق المقعد: الأهرام، والأخبار، والمصري اليوم، والشهاب أصحبها معي في السيارة وأنا أتجه إلى الجامعة لارتباطي بمحاضرة العاشرة.. ومرة – أثناء التوقف في الإشارة الضوئية الحمراء – وقعت عيني على خبر بالبنط العريض في وسط الصفحة الأولى بالأهرام "حادثة المقياس"، فقرأت: "اختنق بغاز متسرب ثلاثة أشخاص في مكان واحد في المسكن رقم (٦) بعمارة (٤) بشارع المقياس بالروضة

وهم: "مانويل زخاري، الخبير الروماني الاقتصادي، الذي وجد مختنقاً في فراشه، وفي غرفة أخرى عثرت الشرطة على شاب مفتول العضلات مختنقاً بالغاز يدعى "سمعان الواسطي" "ضبط بحوزته" ورقة بأسماء شخصيات سياسية وأمنية وأدباء ومفكرين.. وفي نفس الغرفة عثرت الشرطة على شاب ضخم الجسم تبين أنه أمين شرطة بقسم قصر النيل وهو ممدد في الفرش بالملابس المدنية ومختنقاً بالغاز ويدعى بهادر الجبالي. وجاري التحقيق في الحادث الذي هزّ حي الروضة، ولم تتوصل الشرطة إلى الجاني الذي تعمد أن يترك ورقة مكتوبة بالكمبيوتر علقها في صدر الصالة "ليس قضاءً ولا قدراً"، وتستدعي الشرطة كل من ترى أن له صلة بالحادث"..

واصلت السير إلى الكلية وأنا أفكر في الحادث.. تناوله بعض أعضاء قسم الجراحة الذي تعجبوا من الفاعل الجريء المتحدي، وأبدى البعض الآخر إعجابهم به؛ إذ يبدو أن الفاعل المجهول يريد أن يثبت حقه في القتل، وأن يبرر الجريمة، وأن يمنحها صفة "المشروعية"..

استمعت إلى هؤلاء وهؤلاء في صمت غالب، وإن شاركت برأي في الحديث الجاري حرصت أن يخلو من "الشماتة".. وفي جميع ساعات اليوم شعرت بداخلي يبتسم ويتهلل؛ فها هو الرأس المدبّر قد أزاحته اليد المجهولة، وها هو يلقى نفس المصير: "الاختناق بغاز متسرّب"، ورغم أنني أحسست بالراحة لإقصائه، فإنني توقعت أن استدعي للسؤال والاستفسار عن "جريمة القتل" التي اكتشفتها أنوف الجيران، لكن بعد "فوات الأوان" كما ذكرت في صفحتها الأولى كل من "المصري اليوم".. و "الشهاب"..

في الرابعة عصر يوم الخميس طرق الباب ضابط شرطة بالملابس المدنية موفداً من مباحث مديرية أمن الإسكندرية، فاستقبله مجدي ابن شقيقتي، وعرف منه أنني مطلوب لمقابلة رئيس المباحث المقدم منير الحديدي.. وأضاف عندما رآني وعرف أنني الدكتور رشيد الكاشف:

– يمكن لسيادتك أن تشرف مكتبه في أي وقت هذا المساء.

فقلت بسرعة:

- سألحق بك بعد عشر دقائق.

وعندما حاول مجدي أن يثنيني عن الخروج ليستفسر عن هذا الاستدعاء طمأنته وقلت:

- هذا إجراء عادي ولابد من تنفيذه.

في غضون دقائق كنت أمضي بسيارتي إلى مديرية أمن الإسكندرية.. ابتسم داخلي مرة أخرى وأنا أتذكر عبارة الفاعل المجهول: "ليس قضاء ولا قدراً" التي تفيد أن الحادث مدبّر وليس وليد الخطأ أو الإهمال.. وشاركني في الابتسام وجها همس الجوهري و"نبيل جريس" وكأنهما يشدان من أزري ويقوّيان من عزيمتي أمام رئيس المباحث "المقدم منير الحديدي" الذي استدعاني.. وفحَصني بعمق ثم قال:

- وردت إشارة من مباحث الجيزة لتوجيه أسئلة إليك بخصوص جريمة قتل بالغاز في مسكن بشارع المقياس، بحي الروضة بالقاهرة.. علمت بها؟

- نعم.. من الصحف.

- تحرياتنا أفادت أنك أقمت بشقة في الجيزة لعدة أيام ثم عدت إلى الإسكندرية، فمتى عدت؟

- منذ أربعة أيام..

- شاهدك أحد في فترة ما بين الواحدة والثانية صباح يوم الثلاثاء الماضي؟.

- كنت أستقبل مرضاي حتى الواحدة صباحاً بالعيادة ومعي تلميذي الدكتور "جمال زكي" والممرض ناشد حفظي، والممرضة هناء العسال. وفي التاسعة والنصف من صباح الأربعاء اتجهت من منزلي إلى الكلية، فموعد محاضرتي بقسم الجراحة الساعة العاشرة.

جعل رئيس المباحث يطرح أسئلة هدفها التأكد من وجودي في الإسكندرية أثناء وقوع الحادث في الفترة من الواحدة إلى الثانية صباح الثلاثاء الماضي، وسأل عما إذا كانت لي علاقة بمانويل زخاري؛ فالتحريات أثبتت أن القتلى يرتبطون بحادث اختفاء شقيقك صفوان الكاشف. وفي النهاية أغلق المحضر ووقعت

على أقوالي وانصرفت من الغرفة.. ومقر المديرية لأشعر بأن داخلي مفعم بالابتسام.. وقلت في نفسي: ما عليّ إلا أن أهرع إلى مسكني لأقضي وقتا مع ولديّ أكرم وعزيز وبثينة ومجدي قبل أن أنصرف إلى ما ينتظرني من مهام..

(٢٩)

استلمت-في اليوم التالي إشارة عن طريق مباحث مديرية أمن الإسكندرية لمقابلة وكيل النيابة مسعد نور بمباحث الدقي بالجيزة.. بعد المحاضرات ذهبت إلى منزلي وجلست بعض الوقت مع بثنية وأكرم وعزيز. ثم توجهت في الرابعة عصراً إلى الطريق الصحراوي قاصداً الجيزة، فوصلت إليها في السابعة. مررت بعمارة الياسمين حيث شقة "صفوان" ، يجلس أمام باب العمارة البواب عزام. تطلعت إليها بأسف وحزن وأنا أواصل السير إلى مسكني بعمارة الأندلس.. وقلت: الأحداث تتوالى، وموضوع اختفائه زاحمته أحداث أخرى أضعفت من اهتمام جهات التحقيق. وها أنت تُستدعى إلى مقر النيابة لأنك المستفيد من مقتل

مانويل زخاري؛ الذي سبق وأن استدعته المباحث في جرائم اغتيال الغمراوي وهمس ونبيل نتيجة شكوى من مجهول..

استقبلتني الشقة بصمت متوقّع.. كل شيء فيها في مكانه كما تركتها منذ أسبوع.. فتحت التلفزيون وجلست على كنبة الأنتريه في مواجهته. قلبت قنوانه حتى وقفت على قناة "بي بي سي" البريطانية العربية، أوردت اهتمام كل من أمريكا ورومانيا باغتيال "مانويل زخاري" لأنه يحمل الجنسيتين الأمريكية والرومانية، وقد عقّب مراسل القناة في القاهرة بأن ثمة أنباء عن تورّطه في أعمال مريبة رصدها الأمن المصري، وربما يكون ضالعاً في أحداث اغتيال وقعت خلال الشهر الماضي..

ما إن انتهى التعليق على الخبر، حتى نهضت واتصلت بوكيل النيابة مسعد نور بمكتبه، فطلب مني الحضور إلى المقر فوراً فأنا في انتظارك.. غادرت الشقة وأحكمت إغلاق الباب، وهبطت بالمصعد وأنا أشعر بتوجّس يملأ قلبي، لازمني حتى بلغت مقر النيابة..

نهض من مقعده مسعد نور وصافحني مرحباً. طلب شاياً، وتبادلنا عبارات التحية. ثم عمد إلى طرح أسئلة محورها التأكد من عدم وجودي في الجيزة والقاهرة من الساعة الواحدة إلى الثانية صباح الثلاثاء الماضي. ولما أكدت له أنني لم أغادر الإسكندرية إلا في الرابعة مساء اليوم ابتسم ابتسامة صافية وقال:

- تحرياتنا أثبتت أنك لم تغادر الإسكندرية وقت وقوع الجريمة.

ثم التفت إلى سكرتيره.. وقال:

- يقيد الحادث ضد مجهول.

ودعاني إلى التوقيع على أقوالي فوقّعت، وقال بلهجة تتسم بالمودة:

- متي ستعود إلى الإسكندرية؟

قلت:

- غدا حوالي التاسعة صباحا.

فعقب قائلا:

- أرجو أن أراك في التاسعة قبل سفرك، يناسبك الموعد؟.

فبادرت:

- نعم بالتأكيد يناسبني.

حييته وخرجت من الغرفة، ومقر النيابة حوالي الساعة الحادية عشرة، لأتجه إلى عمارة الأندلس ومسكني المطل على النيل.. وعندما دخلت المصعد لحق بي شاب أنيق ووقف إلى جواري صامتاً.. وقبل أن يتوقف المصعد في الدور الرابع فاجأني الشاب بتقديم ورقة وهو يقول:

- المهندس أشرف الساعي يطلب منك عدم العودة الليلة.. ابق في مسكنك ولا تعد إلى الإسكندرية إلا عصر غد.

غادرت المصعد، وواصل هو الصعود إلى العاشر.. قضيت الليلة مسهداً في فراشي أفكر في شاب المصعد، وفي همس، ونبيل: افتقدتهما، فشعرت بوحشة شديدة.. ولكنني ما لبثت أن شعرت بالراحة عندما داخلني خبر اغتيال "مانويل زخاري" الرأس المدبر كما وصفه نبيل.. وتساءلت هل أشرف الساعي

وراء التدبير باغتياله؟ ها هو يطلب مني عن طريق شاب المصعد أن أبقى في الجيزة الليلة ولا أغادرها فلماذا؟.. هل هل هل؟ ربما.. تلقيت اتصالاعلى التليفون الأرضي من وكيل النيابة في الساعة الثانية أكد فيه على موعد التاسعة صباحا، تعجبت من اتصاله في هذا الوقت المتأخر، ولكني ما لبثت أن فكرت: قفز إلى ذهني شوقي الجباسي الذي أزاح بقسوة زوجته "همس الجوهري"، وخالطته صورة هند الجارحي وهي تتجسس، وتشهر المسدس في وجهي، وتهرب إلى مكان غير معلوم، مضحية بكل شيء من أجل "المركز" الذي يرأسه شوقي الجباسي، ورأيت صورتها في ركن بعيد جداً. ويغطي وجهها دخان كثيف حجب ملامحه ومعنى عينيها..

اتصل بي في الثالثة صباحاً على التليفون الأرضي وكيل النيابة مسعد نور.. كنت قد استغرقت في النوم منذ ساعة. تعجبت مرة أخرى من اتصاله في هذا الوقت المتأخر من الليل.. وقد بادر بوقف تساؤلي بقوله إنه تلقى منذ قليل اتصالاً من رئيس مباحث مديرية أمن الإسكندرية بخصوص وقوع جريمة قتل بالغاز في

المنتزة ضحيتها اثنان هما شوقي الجباسي وهند الجارحي، ولمّح إلى أن الدكتور رشيد الكاشف ربما يكون هو الفاعل لآن القتيلة زوجته والقتيل زوج لهمس الجوهري تلميذة صفوان الكاشف المختفي.. ولذلك أرى أن تسرع بالحضور إلى مقر النيابة، وسوف أكون في انتظارك في حدود نصف ساعة..

نهضت وبدّلت ملابسي.. والساعة تشير إلى الثالثة والربع.. مضيت إلى الباب.. فتحته وقبل أن أصل إلى المصعد رنَّ تليفوني المحمول. دلت أرقامه على الشاشة بأن الاتصال عن طريق "كشك الميناتل". أتاني صوت أشرف الساعي قائلاً:

- يمكنك من الآن أن تعود إلى الإسكندرية..

فتساءلت:

- هل أطمئن على أكرم وعزيز؟!

- لن يصيبهما مكروه.. اطمئن.

- وصفوان؟!

- سنصل إلى الحقيقة قريباً.

صمت برهة وقال:

- أنت لم تقابلني ولم ترني منذ سنوات.

- ومقابلتنا بالمنشية؟.

- سريّة.. وإذا عُرفت فهي مجرد زيارة لصديق صفوان ورفيقه في حرب الاستنزاف و ٧٣.

فقلت:

- خذ حذرك.. فهم لن يسلموا بسهولة.

- اطمئن.. وسوف أرعاك وستجدني إلى جوارك دائماً.

ودّعني وتمنى لي التوفيق، والعودة بسلام إلى الإسكندرية وأغلق السماعة..

دخلت مقر النيابة في الرابعة إلا ربعاً. واتجهت إلى مكتب وكيل النيابة الشاب. تقدمت منه وهو يقابلني بابتسامة صافية.. حييته وجلست صامتاً.. قال:

- أيقظتك. حرصت على أن أتأكد من وجودك هنا.. يهمني أن أعرف أنك لم تكن بالإسكندرية وقت وقوع الحادث.

سكت لحظات وقال:

- طبعاً لا علاقة لك بالحادث. قال رئيس مباحث الإسكندرية إن القاتل ترك في فيلا شوقي الجباسي ورقة تتوسطها عبارة "ليس قضاء ولا قدراً".

تساءلت:

- كيف وقع الحادث؟.

قال:

- شم رجلا أمن الفيلا غازاً ظنّا أنه رائحة يحملها موج البحر، بينما كانت الفيلا مغلقة ومحكمة الإغلاق.. وعرفا بعد "فوات الأوان" أن ما يشمانه هو غاز متسرب من الأنبوب المتصل بـــ"البوتاجاز".. هرعا إلى الباب وقاما بكسره وأسرعا إلى فتح النوافذ، ثم رأيا شوقي ممدداً في فراشه بغرفة نومه، بينما كانت هند الجارحي في غرفة أخرى ممددة على كنبة وهي بملابس النوم.. لكن المعاينة أثبتت أن ثمة من خدّرهما قبل تسرب الغاز..

وقال وكيل النيابة دون توتّر:

- هل تشك في أحد له مصلحة في اغتيال زوجتك هند الجارحي؟.

- لا أتهم أي حد على الإطلاق.

فتطلع إلى مساعده وأملى عليه:

- تم سؤال الدكتور رشيد الكاشف الذي قضى مساء أمس وليله حتى الرابعة من صباح اليوم في مسكنه بالجيزة، فأجاب أنه لا يتهم أحداً على الإطلاق، وبناء عليه نرى نحن مسعد نور وكيل نيابة الدقي أن الدكتور رشيد الكاشف لا علاقة له بالحادث.

نهض ومدّ يده فسلمت مودعاً.. لكني قلت:

- كنت قد حددت لي موعداً في التاسعة من صباح اليوم.

فعقّب بسرعة:

- لا داعي للحضور.. يمكنك السفر إلى الإسكندرية من الآن، فهم يريدونك في مديرية الأمن.. لتوجيه أسئلة لا أراها مزعجة..

حييته.. وغادرت الغرفة والمبنى قاطعا طريق المحور المؤدي إلى الطريق الصحراوي الذي سطعت فيه أثناء سيري وجوه صفوان الكاشف، وكمال وهدان، وماهر الغمراوي، وهمس الجوهري، ونبيل جريس تعلوها ابتسامة واحدة أحدثت في نفسي الراحة والرضا..

لكن ما لبثت أن عدت إلى التفكير في شقيقي صفوان الذي لم تعثر عليه الشرطة بعد.. فاستدرت عائداً إلى ميدان الرماية الذي عبرته إلى شارع الهرم فشارع مراد قاصدا مسكني المؤقت الذي ما زلت محتفظاً به. مررت بالعمارة التي يسكنها شقيقي صفوان، فرأيت البواب "عزام" جالسا أمام الباب بارتياح.. دققت فيه النظر في الوقت الذي اتصل بي أشرف الساعي قائلا بصوت واثق رخيم:

- يمكنك أن تعود إلى الإسكندرية الآن.

فأحسست بمزيد من الرضا والاطمئنان وأنا أستدير لأقطع شوارع النيل ومراد والهرم قاصدا الطريق الصحراوي..

الهرم ١٠ إبريل ٢٠٠٩

كتب أخرى للمؤلف

أ- **القصص:**

- **العائد بالحب:** (رواية)، ط(١) دار الإبداع- القاهرة، ٢٠٠٦، ط(٢) أجيال – الجيزة، ٢٠٠٨.
- **سلوى الروح:** (رواية) ط(٢)، دار الإبداع، ٢٠٠٧.
- **الجرح:** مجموعة قصصية، ط (١) لجنة النشر للجامعيين، ١٩٧١، ط (٢)، الأنجلو المصرية-القاهرة، ١٩٩١، ط(٣) دار الإبداع ٢٠٠٨.
- **الكلام:** مجموعة قصصية، ط(١) دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨١، ط(٢) الآداب-القاهرة، ١٩٩١، ط(٣) دار الإبداع ٢٠٠٨.
- **أمواج الفردوس:** مجموعة قصصية، ط(١) الأنجلو المصرية- القاهرة ٢٠٠٥، ط(٢) دار الإبداع ٢٠٠٩.
- **يوم:** قصص، ط(١) أجيال- الجيزة، ٢٠٠٨.
- **فوق الأحزان:** رواية، ط(١) دار الإبداع- القاهرة، ٢٠٠٨.

ب- الكتب:

- **فن القصة القصيرة عند نجيب محفوظ:** ط(١) مكتبة أم القرى- الكويت،١٩٨٤، ط(٢) الأنجلو المصرية- القاهرة ١٩٨٨.
- **قيم الإبداع الشعري في النقد العربي القديم:** ط(١)، الأنجلو المصرية- القاهرة ١٩٨٩.
- **تذوق الفن الشعري في الموروث النقدي والبلاغي:** ط(١) الأنجلو المصرية- القاهرة ١٩٨٩.
- **مقاييس الحكم الموجز في الموروث النقدي:** ط (١) الأنجلو المصرية- القاهرة، ١٩٩١ ، ط٢ مكتبة بورصة الكتب ٢٠١١.
- **الخطاب النفسي في النقد العربي القديم:** ط(١) الأنجلو المصرية١٩٩٣، ط(٢)، مكتبة الآداب- القاهرة٢٠٠١، ط(٣) ٢٠٠٦ ، ط٤ ، مكتبة بورصة الكتب – القاهرة ٢٠١١.
- **فاعلية التعاقب في الشعر العربي الحديث:** ط(١) الأنجلو المصرية- القاهرة، ١٩٩٥.
- **جدلية الأداء التبادلي في الشعر العربي المعاصر:** ط(١٩٩٥، ط (٢) الأنجلو المصرية- القاهرة ١٩٩٩.

- **الصنعة الفنية في التراث النقدي**:ط(١) مركز الحضارة العربية -القاهرة ١٩٩٩.
- **طاقات الشعر في التراث النقدي**:ط(١)الأنجلو ٢٠٠٠، ط(٢) مكتبة الآداب، ٢٠٠٧.
- **نظرية الإبداع الشعري عند النواجي**: ط(١) الأنجلو المصرية- القاهرة ٢٠٠٠.
- **إحكام النص الشعري في التراث النقدي والبلاغي**: ط(١) الأنجلو المصرية- القاهرة ٢٠٠١.
- **تحليل النص الأدبي: دراسات في الأجناس الأدبية** (بالاشتراك مع د. عزة الغنام ود. الزهراء بدوي) ط(١) الأنجلو المصرية – القاهرة ٢٠٠١.
- **تجليات الإبداع الأدبي**: ط (١) الآداب- القاهرة ٢٠٠٢.
- **أساليب علم المعاني بين النظرية والتطبيق**:ط(١) الآداب- القاهرة ٢٠٠٣.
- **الفنون البيانية والبديعية بين النظرية والتطبيق**: ط(١) الآداب- ٢٠٠٣.

- **البنيات الكاشفة عند نجيب محفوظ:** دراسات في النص القصصي من عام ١٩٧٩ إلى عام ١٩٩٦،ط(١) الأنجلو المصرية – القاهرة ٢٠٠٤.
- **مرايا التجلي: رؤى نقدية كاشفة:** ط(١)، الأنجلو المصرية- القاهرة ٢٠٠٥.
- **فيض القلم: مقالات في الثقافة والأدب:** ط (١)، مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة ٢٠٠٥.
- **نجيب محفوظ حالمًا بالقمر:** ط(١) الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٦.
- **لعبة الضمائر**، دراسات فى النص القصصى عند نجيب محفوظ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ٢٠١١